اللغة غير الملفوظة وأثرها في تعزيز القوة الإنجازية

د/هانم محمد حجازي الشامي

أستاذ النقد والبلاغة، كلية الآداب/ جامعة كفر الشيخ

تتمثل الوسائل الخارجة عن نطاق اللغة في السلوكيات الحركية، والإشارات الجسدية، وأفعال طقوسية غير لفظية، كالإشارة باليد والأرجل، وكشف الساق، وتقطيب الوجه، وانتفاخ الأوداج، واحمرار العين، وثني العطف، والنأي بالجانب، ونبرة الصوت...إلخ، وكل ذلك من مصاحبات الكلام، لكنها وسيلة رئيسة في فهم المنطوق؛ إذ إنها تزيد القوة التوجيهية للمتكلم في التوجيه الفعلي بنوعيه؛ الإيجابي والسلبي، والتأثير المبتغى في سلوكيات المتلقي.

ويناقش البحث وسائل القوة في اللغة غير المنطوقة؛ بما تحمله من لوازم لتعديل قصدية طرفي الخطاب، ورصد آليات الدلالات الاجتماعية والنفسية الناجمة عن السلوكيات غير اللفظية، والدلالات التوليدية وأثرها في توجيه قصدية الخطاب. ويكشف البحث عن العلاقة الوثيقة بين أفعال الكلام الإنجازية وسياقاتها اللغوية وغير اللغوية. كما يؤكد أن القوة في اللغة غير المنطوقة، وتحديد سيكولوجيتها، وتعيين درجاتها من المداخل الرئيسة لتحليل الخطاب الأدبي.

منـــهج البـــحـث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفى القائم على التحليل؛ لمعرفة المعنى العام المراد توجيهه، والمعلن عنه من خلال السياق الذي ورد فيه، كاشفًا عن تعيين الفعل الأدائي، أو خروجه عن التعيين؛ لتعديل سلوكيات الفعل الإنساني، والكشف عن الوسائط التي أدت إلى ذلك. واستدعى حالة الخلق والبناء المنهج السيميائي؛ للكشف عن تشكيل قوة الخطاب غير المنطوق بأنماطه المتعددة؛ ومعرفة تأثيراته العبورية في استخلاص المعنى ومعنى المعنى. ولا يغفل البحث عن الاستعانة بالمنهج التداولي؛ إذ إنه الأداة الرئيسة لرصد قصدية طرفي الخطاب، ومحتواه، والمقام الذي سيق فيه.

ســـــؤال البـــحث:

هل اللغة غير المنطوقة لها القدرة الكافية على تشكيل الخطاب؟، ما مدى هذه القدرة؟، هل نستطيع قياسها؟، هل هذه القوة في هذا الخطاب يبنى عليها تعديل التواصل الأفقي إلى التواصل العمودي والعكس؟، هل اللغة غير المنطوقة مقتصرة على جنس أدبي دون سواه؟.

يأتي البحث للوقوف على أهمية اللغة غير المنطوقة من خلال مقدمة تناولت المنهج، وأهميته، وسؤال البحث، وتمهيد اشتمل على أهمية تلك اللغة بين القدامى والمحدثين؛ بوصفها عنصرًا رئيسًا له دوره المهم في توجيه السلوكيات الإنسانية، ولغةً لها دورها في التواصل الأفقي والعمودي. وتمَّ توظيف ذلك في ستة محاور

كالآتي: الأول: العين وتعزيز القوة الإنجازية، الثاني: الوجه وتعزيز القوة الإنجازية، الثالث: اليد وتعزيز القوة الإنجازية، الرابع: الساق وتعزيز القوة الإنجازية، الخامس: الرأس وتعزيز القوة الإنجازية، السادس: وضع الجسم وتعزيز القوة الإنجازية.

تمهــــيد:

تقيم الوسائل اللغوية غير المنطوقة اتصالًا تمثيليًّا له أهميته في لغة العرب، وله لغته الخاصة في النصّ القرآني، وفي الأحاديث النبوية. وقد أشارت البحوث التربوية التي أجريت في مجال الاتصال غير اللفظي أن لغة الجسد تشكل [٦٥%] من عملية الاتصال عامة(١). وقد جعل "أوستين" الحركات الجسدية من مصاحبات الكلام Accompagniments Of Utterance (٢)، ولها أثرها الفاعل في صنع الموقف التواصلي فقد نصَّ البلاغيون على أهميتها. قال قدامة: "فأمّا الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليّ الشّفاه وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه؛ وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل، تجاه عين الناظر(٣). وهذه العملية الجسدية دعم للتواصل اللفظي، بل قد تغني الإشارة وحدها عن اللغة المنطوقة كما في قوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم: ٢٩]؛ وردهم عليها يعني أنهم فهموا منطوقها؛ فعبروا بالقول لفظًا بـ: (قالوا)، وهذا يدل على أن الإشارة وحدها قد تغني عن اللفظ في الدلالة على المعنى، وقد تقترن باللفظ فتؤكد دلالته وتقويه في نفس المتلقي، فتنتقل الإشارة إلى ما يسمى بـ (المسافة العاطفية) وتسمى عندئذ (الإشارة الوجدانية).

ومن تعريفات البلاغة: أنها لمحة دالة"(٤). وحد البلاغة "وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة"(٥). وليس المقصود أن يكون اللفظ القليل مشتملًا على معان كثيرة، هذا مقصده الإيجاز (بالقِصَر)؛ وإنما مقصد البحث واتجاهه العوامل المصاحبة للكلام.

وقد حصر الجاحظ أنواع البيان بخمسة لا تزيد ولا تنقص هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال. وهو يجعل الإشارة بالجوارح كاليد والطرف والحاجب مرفقا كبيرا يعين الناس في أمور يحاولون سترها عن البعض دون البعض،...، ولا بدّ لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولاها لم يستطيعوا التفاهم في معنى خاص الخاص (٦). وفي موضع آخر نراه يصرح بفائدة الإشارة، حيث يقول: " وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع"(٧). وقد عابوا على أبي شمر تصلبه في أداء الخطبة، فقالوا: "وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرّك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرّك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة""(٨).

وقد فقه البلاغيون القدامى إلى ذلك فوضعوا إشارات صارت مثلًا حتى اليوم يضرب به، فيما يسمى "الاستعارة التمثيلية"، فعلى سبيل المثال حينما يعمد أحدنا إلى القول: (أراك تقدم رجلًا وتؤخر أخرى)، فهذ دال على التردد، وعدم حسم الأمور، وحينما ننظر إلى مورد المثل، نرى أن مرجعه "أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته، فكتب إليه: " أما بعد، فإني أراك تُقَدِّمُ رِجْلًا وتؤخرُ أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام"(٩) واستخدم العرب الأدوات، والعصا، والرمح، والخاتم، وفتح العيون، أو إغلاقها، إشارات إلى أشياء بعينها، كنحو ما كتب به الحجاج إلى المهلب حين حضه على قتال الأزارقة وتوعده له حيث قال: فإن أنت فعلت ذلك وإلا شرعت إليك صدر الرمح. فأجابه المهلب وقال: فإن يشرع الأمير إليّ صدر الرمح قلبت له ظهر المِجَن."(١٠)

وقد تكلم الجاحظ عن مصاحبات الكلام، دارجًا ذلك تحت باب "الإشارة"، فقال: فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا(١١). ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد قام رجل من ذي الكلاع فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار بيده إلى معاوية، فإن مات فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن أبى فهذا، وأشار إلى السيف، ثم قال:

معاوية الخليفة لا تمارى ... فإن يهلك فسائسنا يزيد

فمن غلب الشقاء عليه جهلًا ... تحكم في مفارقه الحديد

وقد جاء أبو نواس بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها، وذلك أن الأمين بن زبيدة قال له مرة: هل تصنع شعرًا لا قافية له؟ قال: نعم، وصنع من فوره ارتجالًا:

ولقد قلت للمليحة قولي ... من بعيد لمن يحبك: " إشارة قبلة "

فأشارت بمعصم ثم قالت ... من بعيد خلاف قولي: " لا لا "

فتنفست ساعة ثم إني ... قلت للبغل عند ذلك: " امش "

فجعل تمام الأول حركة اليد التي يشار بها بمعنى: "أقبل" مكررة، وجعل الثاني مما يشار إليه بمعنى: (لا لا)، وجعل تمام الثالث الحركة التي يشار بها بمعنى "امش" مكررة كذلك، والإشارات مما تتناول بالبصر، ومما لا سبيل إلى تصويره بغير أداته الطبيعية فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتيه، وأعطاه الأمين صلة شريفة(١٢).

وللعرب في بعض ذلك تعبير يؤدي معنى الإشارة اصطلاحًا، كتعبيرهم عن صوت النفي في البيت الثاني بقولهم: (مِضِّ)، وهو أن يقول الإنسان بطرف لسانه شبه لا، وأنشد(١٣):

سألتها الوصل فقالت مض ... وحركت لي رأسها بالنغض.

ومن إشارات الحذف، نحو قول نعيم بن أوس يخاطب امرأته:

إن شئت أشرفنا جميعًا فدعا ... الله كل جهده فأسمعا

بالخير خيرًا وإن شرا فاا ... ولا أريد الشر إلا أن تاا

كذا رواه أبو زيد الأنصاري، وقال: لأن الرجز يدل عليه، إلا أن رواية النحويين " وإن شرًا: فا " و " إلا أن: تا " قالوا: يريد إن شرًا فشر، وإلا أن تشائي.. وأنشدوا:

ثم تنادوا بعد تلك الضوضا ... منهم بهات وهل ويا يا

نادى منادٍ منهم ألاتا ... قالوا جميعًا كلهم بلى فا

وأنشد الفراء: قلت لها قومي فقالت: قا ف يريد قد قمت(١٤).

ويروى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل كان إذا مدح لا ينظر إلى وجه مادحه، فتلطف ابن مطروح الصاحب جمال الدين الشاعر المتوفى سنة ٦٤٩هـ وعمل قصيدة بنى قافيتها على الإشارة، فكان كلما انتهى إلى قافيته أشار بما يدل عليها، فنظر إليه الملك، ومن هذه القصيدة قوله(١٥):

تعشقت ظبيًا وجهه مشرق كذا ... إذا ماس خلت الغصن من قده كذا

له مقلة كحلاء نجلاء إن رنت ... رمت اسمها في قلب عاشقه كذا

وهذه تسمى عند العرب بالقوافي الحسية، وهذا النوع من الإشارة وارد بعضه في الحديث الشريف كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا، بِالوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»(١٦)" وفي حديث سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى(١٧). وفى حديث أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ(١٨). وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا، وَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ رُكُوعُكُمْ وَلاَ خُشُوعُكُمْ، وَإِنِّي لَأَرَاكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِي»(١٩) وفي حديث الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: هَاهُنَا أَرْضُ الْفِتَنِ، وَأَشَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ، يَعْنِي حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ(٢٠).

أما عن صفة رسول الله في مصاحبات لغته، ووصف منطقه لفظًا ولغة، فلا نجد إلا هذا الوصف، " كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا فضْرِبَ بِرَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنِ إِبْهَامِهِ الْيُسْرَى، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرَفَهُ جَلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، وَيَفْتُرُ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ"(٢١).

وأما عن اللغة الإشارية في القرآن الكريم فقد تنوعت تلك اللغة، مثل التعبير بالعين، والإشارة باليد، والعض عليها، وتقليب الكف، ولين الجانب، وتصعير الخد، وصك الوجه، والتبسم والاستبشار به، أو العبوس والنذارة منه، ولغة الترقب، ...الخ. وتمَّ توظيف ذلك من خلال ستة محاور كالآتي:

المحور الأول: العين وتعزيز القوة الإنجازية

أما عن لغة العيون، فلا أجد أحسن من تصوير ابن حزم في كتابه طوق الحمامة"؛ حيث إنه أفرد لها بابًا خاصًا أسماه (باب الاشارة بالعين)، وقد صور العين أحسن تصوير، فجعلها أبلغ رسول، ولها من الكلام ما يعجز اللسان عن قوله، فنراه يقول عن الإشارة بلحظ العين: "الإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتهما سؤال، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة. واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة. وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات(٢٢).
وقد اختار الشعراء لغة العيون؛ للتعبير عن محبتهم، وقد قال أَحْمَد بْن أبي طَاهِر(٢٣):

حَبِيبِي حبيبٌ يكتم النَّاس أَنه ... لنا حِين ترمينا الْعُيُون حبيب

يباعدني فِي الْمُلْتَقى وفؤاده ... وَإِن هُوَ أبدى لي البعاد قريب

ويعرض عني والهوى لي مقبلٌ ... إِذا خَافَ عينا أَو أَشَارَ رَقِيب

فتخرس منا ألسن حِين نَلْتَقِي ... وتنطق منا أعين وَقُلُوب

فهما يتناكران أمام الناس، وكل منهما شديد الوجد والولع، يتجرع غصص الهوى وآلامه، ولا يستطيع البوح بما فى مكنونه، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام، وقلوبهما تحترق وجدا، وقد

خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير. وهو مع ذلك يكثر من المجيء إلى دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون، ونراه يقول أيضًا:

إذا ما التقيْنَا والوُشاةُ بمجلسٍ ... فليسَ لنا رسلٌ سِوَى الطَّرفِ بالطَّرفِ

فإنْ غفلَ الواشونَ فزتُ بنظرةٍ ... وإنْ نظرُوا نحوِي نظرتُ إلى السَّقفِ

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة الفينة بعد الأخرى، حتى لا ينكشف أمرهما للواشين، وقد يكون هذا من شدة حرصهما على حبهما، فهما شديدا الحرص عليه، ومع ذلك يجري بينهما حديث صامت يدركونه، ويعلمون مكنونه.

وقال مسلم بن الوليد(٢٤):

جعلْنا علاماتِ المودَّةِ بينَنا ... دقائقَ لحظٍ هنَّ أخفَى منَ السِّحرِ

فأعرفُ منها الوصلَ في لينِ طرفِها ... وأعرفُ منها الهجرَ بالنَّظرِ الشزرِ

وقال محمود الوراق(٢٥):

إنَّ العُيُوْنَ عَلَى القُلُوْبِ شَوَاهِدٌ ... فَبَغِيْضهَا لَكَ بَيِّنٌ وَحَبِيْبُهَا

يَنْطِقْنَ وَالأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ ... فَمَا يخْفَى عَلَيْكَ صَحِيْحُهَا وَمُرِيْبُهَا

ومثل هذا قول بعض الحكماء: (والعينُ بابُ القلبِ). فما كان في القلْبِ ظَهَرَ في العين. وقال أبو الفضل الربعي (٢٦):

العينُ تُبْدي الذي في نَفْسِ صاحبها ... منَ المحبَّةِ أوْ بُغض إذا كانا

والعينُ تَنطقُ والأفْواهُ صامتةٌ ... حتَّى ترى منْ ضميرِ القلْب تِبْيانا

والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب ألبتة(٢٧). وقد قال عمر بن أَبى ربيعَة مصورًا لغة العيون(٢٨):

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا بالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

وإنما برهن –هنا– على نفي الكلام اللفظي بقرينة قوله: (أشارت– لم تتكلم)، ودلل على أن لغة الطرف من الكلام اللغوي بقرينة قول الطرف: (....أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا بالحَبِيبِ المُتَيَّمِ)، وقال جرير:

إِن الْعُيُون الَّتِي فِي طرفها حور ... قتلننا ثُمَّ لَمْ يحيين قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لَا حَرَاكَ بِهِ ... وهُنَّ أَضْعَف خلق اللَّه أَرْكَانَا

وقد وردت في بعض الروايات (إن العيون التي في طرفها مرض)، وإن كنت أستنكر لفظة (مرض)، على ذلك الشاعر الذي شهد له ثعلب قائلًا: "اكتبوها على المحاجر ولو بالخناجر". ففي العين غنى عن اللسان في كثير من الأحايين، فعين الإنسان تبدي ما في قلبه، وفي اللحظ إيحاء، ومنه رسول. وقد صور الشاعر لغة العين، وانعكاس ذلك على الوجنتين، ومن عجيب ذلك التصوير أن اللغتين فيهما تبادل، فهو يرد باللغة ذاتها، معبرًا عما يكنه في القلب من وجد ولوعة، وما يحمله الصدر من حب وشغف، قال أَحْمَد بْن أبي طَاهِر(٢٩):

كتبتُ إلى الحبيبِ بكسْرِ عيني ... كتابًا ليسَ يقرأُهُ سواهُ

فأخبرني تورُّدُ وجنتيهِ ... وكسرُ جفونهِ أنْ قد قراهُ

وقد صور القرآن الكريم أهمية العيون بوصفها رسولًا ناطقًا، وسهمًا صائبًا، فأمرنا بغض الطرف، قائلًا في محكم آياته: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النور: ٣٠، ٣١].

جاء غض الطرف في القرآن الكريم في سياق آداب الجلوس، فقد نهي عن التحديق بالبصر؛ لذا نجد حرف (من) المقتضي التبعيض؛ ليُعلم منه أن غض البصر له مراتب، و قد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم على عن تتبع النظرة الأخرى، وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ»(٣٠). وغَضُّ الطَّرفِ: خَفْضُه وَكَسرَهُ، وَقِيلَ: هُوَ إِذا دَانَى بَيْنَ جُفُونِهِ وَنَظَرَ، وَقِيلَ: الغَضِيضُ الطرْفِ المُسْتَرْخي الأَجفانِ(٣١). وقد يكون غض الطرف هجاءً وذلًا، كما في قول جرير(٣٢):

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُميرٍ ... فلا كَعبًا بَلَغْتَ ولاَ كِلاَبَا

وقد يكون غض الطرف حياءً، وَفِي الْحَدِيثِ:" كَانَ إِذا فَرِحَ غَضَّ طرْفَه"[٣٣] وقد مجَّد الشعر العربي تلك الصفة على مر العصور، وقد ذكر ذلك عنترة في شعره[٣٤]:

وأغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارَتي ... حتَّى يواري جارتي مأواها

إنِّي امروٌ سمحُ الخليفةِ ماجدٌ ... لا أتبعُ النَّفسَ اللَّجوجَ هواها

وَمِنْهُ قَصِيدُ كَعْبٍ:

وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا ... إلاّ أغنَّ غضيضُ الطَّرفِ مكحولُ

والأمر بغض البصر أمر امتثال، جاء مقدمة انطلاقية للأمر بحفظ الفروج؛ إذ إنَّ البصر آلة ذلك، والمتسبب فيما يحدث للشخص من صيانة عرضٍ أو هتكه. وحيث إنه المحرك الرئيس للزنا، فقد جاء الأمر فيه منفردًا لفئة الذكور(يغضوا)، وفئة الإناث (يغضضن)؛ لئلا يتوهم متلق بتوجيه الأمر لفئة دون أخرى، وقوى تعزيز الأمر بالعطف (يحفظوا فروجهم/ يحفظن فروجهن)؛ ثم وظف الإحالة الإشارية؛ لعظم المطلوب، وسمو مكانته (ذلك)؛ أي ذلك المطلوب (أزكى) مستخدمًا أفعل التفضيل مسلوب المفاضلة؛ لإعلاء شأن تلك التزكية. ثم ذيل الامتثال للأمر بقوله تعالى: (إن الله خبير بما يصنعون)؛ مظهرًا الاسم الأعظم في موضع الإضمار تهديدًا ووعيدًا لمن يخالف أوامره، معللًا ذلك باسمه الخبير، المتضمن العلم بالأسرار والخفايا، وما يقوم النفس ويصلحها ويبعدها عن هواها.

وقد جاء ابيضاض العين في القرآن الكريم لغة إشارية دالة على الحزن في قوله تعالى: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} [يوسف: ٨٤]، وقد يكون الابيضاض المذكور في سورة يوسف إشارة إلى العمى، بقرينة قوله تعالى: {فارتد بصيرًا}، وقد يكون غشاوة بيضاء محقت سواد العين نتيجة لكثرة البكاء، وما أود قوله إن ابيضاض العين هنا لغة الحزن مع تعدد دلالاته.

المحور الثاني: الوجه وتعزيز القوة الإنجازية

جاء الوجه تعبيرًا عن المدح والهجاء، وأيقونة للإخبار عما سيؤول إليه الإنسان؛ تبشيرًا له بالجنة، وإنذارًا له من النار، وقد وظف الشعراء على مر العصور الوجه في أشعارهم باختلاف الأغراض الشعرية، فجاء في الغزل والنسيب، وفي المدح والهجاء، وفي الرثاء، فنجد الشاعر القاسم بن حنبل قد استخدمه للمديح[٣٥]:

من البيض الوجوهِ بني سِنانٍ ... لو أنك تستضئ بهم أضاؤا

ومنه قول عبيد الله بن مُحَمَّد بن أبي الْجُوع[٣٦]

صَالح يَا مشبه بدر الدجى ... بالْحسنِ وَالْإِشْرَاق والرفعة

وَجهك فِي اللَّيْل كشمس الضُّحَى ... نورا فَمَا تصنع بالشمعة

وقال الأحوص بن محمد في مدح أحد الخلفاء [٣٧]:

وإذا الدُرُّ زان حُسنَ وجوهٍ ... كان للدُرِّ حسنُ وجهِك زَيْنا

وتزيدين أطيبَ الطّيب طِيبًا ... أن تمسّيهِ؛ أين مثلُك أيْنا!

ومنه قول حسان بن ثابت[٣٨]:

بِيضُ الوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ ... شُمُّ الأُنُوفِ مِنَ الطِّرَازِ الأَوَّلِ

وقد عكسه أحمَدُ بن أَبِي فنن فقال[٣٩]:

سُودُ الوجوهِ لئيمةٌ أحسَابِهمْ ... فُطَسُ الأُنوفِ مِن الطرازِ الآخرِ

وقد وظفه المتنبي في مرثيته لأم سيف الدولة قائلًا[٤٠]:

صلاةُ اللهِ خالِقِنا حَنوطٌ ... على الوجهِ المكفَّنِ بالجَمالِ

على المدْفونِ قبلَ التُرْبِ صوْنًا ... وقبلَ اللّحْدِ في كرَمِ الخِلالِ

وقد أفاض الشعراء أيضًا في وصف الوجه بالعبوس، قال الأشتر النخعي[٤١]:

وفَرتُ وفري وانحرَفتُ عن العُلا ... فلقيتُ أضْيافي بوجْهٍ عَبُوسِ

إنْ لمْ أشُنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لم تخلُ يومًا من ذهاب نفوسِ

ومن أكثر توظيفه في الغزل، ومنه على سبيل المثال قول القاضي التنوخي[٤٢]:

قل للمليحة فِي الْخمار الْمَذْهَب ... أفسدت نسك أخي التقي المترهب

نور الْخمار وَنور وَجهك تَحْتَهُ ... عجبا لوجهك كَيفَ لم يتلهب

وعن صفات الوجه الجميل نذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ففي حديث نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ وَصَفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ عَظِيمَ الْهَامَةِ أَبْيَضَ مُشْرَبًا حُمْرَةً عَظِيمَ اللِّحْيَةِ"[٤٣]. وكان صلى الله عليه وسلم "إذ غضب أعرض وأشاح واحْمَرَّ وَجْهُهُ[٤٤]. وفي حديث أَبَي

الدَّرْدَاءِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَأَنْظُرُ عَنْ شِمَالِي، فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَأَنْظُرُ مِنْ خَلْفِي، فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنَ الْأُمَمِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنَ الْأُمَمِ، مَا بَيْنَ نُوحٍ إِلَى أُمَّتِكَ، قَالَ: غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ(٤٥)"، وكأن هذه الصفة أصبحت ناطقة عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فينادي الملائكة يا أصحاب الغر والتحجيل، والغر أي: على جباههم وأيديهم وأرجلهم نور ساطع كالغرة البيضاء في جبهة الفرس، فإن "الغرة" في اللغة: بياض في جبهة الفرس. والتحجيل بياض في يديها ورجليها، فسمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرًا وتحجيلًا، فصارت سيما لهم، ولغة ناطقة خاصة بهم.

قد ذكر (الوجه) في القرآن الكريم حاملًا لغة البشارة والنذارة، ولغة العتاب والمكر، وسوف يعزز البحث قوله بأمثلة تبرهن على ذلك، منها العتاب الموجه إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ١، ٢]، والأعمى (ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ)، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَى النبيَّ صلى اللَّه عليه وسلم وَهُوَ يُنَاجِي عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأُبَيًّا وَأُمَيَّةَ ابْنَيْ خَلَفٍ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْجُو إِسْلَامَهُمْ. فَقَامَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَجَعَلَ يُنَادِيهِ وَيُكَرِّرُ النِّدَاءَ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغِلٌ مُقْبِلٌ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهِيَةُ فِي وَجْهِ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لِقَطْعِهِ كَلَامَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: يَقُولُ هَؤُلَاءِ الصَّنَادِيدُ: إِنَّمَا أَتْبَاعُهُ الْعُمْيَانُ وَالسِّفْلَةُ وَالْعَبِيدُ فَعَبَسَ رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ يُكَلِّمُهُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ. فَكَانَ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم- بَعْدَ ذَلِكَ- يُكْرِمُهُ، وإذا رآه قال: مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي(٤٦).

عزز الخطاب القرآني القوة التوجيهية لتعديل السلوك بالافتتاح بضمير الغيبة؛ ليشاهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ما حدث منه مرئيًا للعيان على قسمات وجه غيره، فتصبح الصورة جلية واضحة المعالم، ثم عطف صورة العبوس ومعالم الوجه بصورة تغيير وضع الجسم، وهو التولي أو الإعراض أو الانصراف. وقد استعار التولي على سبيل الاستعارة المكنية التبعية في الفعل إشارة للانشغال بغيره، وقد حذف متعلقه؛ للعلم به. والصورة هنا صورة نفسية ترجمت علانية وضعية الجسم، وملامح تغيير الوجه؛ لتعكس حال الإعراض والإقبال، والتصدي والتلهي في الآن ذاته.

وقد تدرج الخطاب القرآني في بث العتاب فبدأ بالغيبة، ثم انتقل إلى الخطاب مع ما فيه من علو النبرة؛ تقوية للعتاب، ولطفًا في كيفية توجيهه، وإلزامًا للحجة بـ " فن الانطلاق" بذكر لفظة (الأعمى)؛ إذ كان من الأولى زيادة الرأفة، ومضاعفة الشفقة، فحق لك ألا تتلهى عنه، وتتصدى لغيره، وكأن الخطاب على مستوى البنية العميقة: فمثلك على جهة الخصوص لا ينبغي أن يصدر منه هذا. وفي هذا التولي من جهة أخرى كناية عن الاعتناء الشديد بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه

قبولها؛ لذا عقب بالاستفهام المتولد عنه دلالات التنبيه لما غفل عنه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. وفي حديث أُمِّ مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيَّةِ في ذكر أوصافه صلى الله عليه وسلم: "لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ"[٤٧]، أي أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يقابل أَحدًا في وجهه بما يكره، وقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم فلم يكن مفندًا في حديثه.

والعبوس درجات، "عَبَسَ يَعْبِسُ عبوسًا فهو عابس الوجه غضبان. فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه كلح، وعَبَّسَ وجهه، شدّد للمبالغة. والتعبس: التجهم[٤٨]. وقد جاء العبوس في قوله تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ } [المدثر: ١٨ – ٢٥]. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ (الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ) كَانَ يَغْشَى النبيَّ صلى اللَّه عليه وسلم وَأَبَا بَكْرٍ حَتَّى حَسِبَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهُ يُسْلِمُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّ قُرَيْشًا تَزْعُمُ أَنَّكَ إِنَّمَا تَأْتِي مُحَمَّدًا وَابْنَ أَبِي قُحَافَةَ تُصِيبُ مِنْ طَعَامِهِمَا. فَقَالَ الْوَلِيدُ لِقُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ ذَوُو أحساب، وذُووا أَحْلَامٍ، وَإِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، وَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يُجَنُّ قَطُّ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَاهِنٌ، وَهَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَكَهَّنُ قَطُّ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا قَالَ: تَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَاعِرٌ، هَلْ رَأَيْتُمُوهُ يَنْطِقُ بِشِعْرٍ قَطُّ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذَّابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْكَذِبِ؟ قَالُوا: لَا. قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْوَلِيدِ: فَمَا هُوَ؟ فَتَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ نَظَرَ وَعَبَسَ، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا سَاحِرٌ، وَمَا يَقُولُهُ سِحْرٌ[٤٩].

يصور الخطاب القرآني هجوم الحق على الباطل بضربات متوالية خلال آيات قصيرة، بفاصلة الراء المجهورة التي تعطي تكرارًا للحدث كأنه مرئي ومشاهد، كيف أرهق الوليد بن المغيرة نفسه في التفكير فحمل نفسه مالا تطيق، فأعمل فكره، وكرر نظره، واعتراه القلق ليزيل ما علق بالأفهام من مدحه للقرآن: "وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعَلَى وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ"(٥٠) وقد رسمت كل تلك الملامح على جسمه بدءًا من الحالة النفسية التي اعتملت في عقله، ثم الحيرة التي تملكت نظره، ثم العبوس الكالح المائل للون الأسود الذي اعترى وجهه قبل أوانه؛ لذا عطف عليه (بسر)، "البَسْرُ: الاستعجال بالشيء قبل أوانه"[٥١]، فكأنه حينما طال عليه الفكر أخذ يستعجل الأمر في غير أوانه، فأضفى اللفظ مزيدًا من الإصرار على الباطل، والطعن في الحق، فحاد عن الحق وزاغ عن الفهم، فما كان من تلك الحال المضطربة إلا الإعراض والاستكبار ووصف الشيء بما ليس فيه. وكان من جملة الحجاج فن الانطلاق الذي مهَّد لنفسه بأن يستحق ما توعده الله به من دعاء بصيغة الخبر التي تحمل اليقين الثابت الذي لا مراء فيه (قتل)، ثم كرر الدعاء؛ لعظم الجرم الذي ارتكبه جراء عناده واستكباره فأكد الدعاء عليه بالهلاك واللعنة؛ ليكون الدعاء أبلغ، ليصل إلى فن العبور وما اعتراه نفسيًّا وجسديًّا من تقلب في الأحوال، وتغيير للأقوال،

وهذا دليل أنه تراخى فلم يسعفه الرد مباشرة، بل أخذ يتأمل وجوه الحاضرين، يستنطق أفواههم، وقد استعصى عليه المقال، فاعتلى العبوس وجهه، وتغير لونه، واعتل قوله، فاستبدل المدح بكمال اللفظ والمعنى، وجمال البهاء وروعة الرونق، فأعرض واستكبر، وتولى وكفر، وقال قولًا أكبر: (إن هذا إلا سحر يؤثر). وكان هذا بعد مسافة زمنية؛ لنفيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم: بأنه ليس شاعرًا، ولا كاهنًا، ولا مجنونًا، وهذه الجملة بمثابة فن (الوصول) لما اعتراه من حال، بعد إعمال فكر وتمهل، وتحير وتفكر، فجاء باسم الإشارة تبرؤًا لما وصفه مسبقًا؛ لذا أسقط الربط، وآثر الارتباط فما يلي نسبته إلى قول البشر؛ تأكيدًا لقيله، وتفنيدًا لما قاله.

وقد ورد الوجه في القرآن الكريم في قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } [الذاريات: ٢٩]، وقد تعاون الوجه مع الصوت؛ لزيادة المحتوى القضوي في وصف حال سارة حين سماعها للبشارة، يقول الجاحظ: "والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل"(٥٢)

وقد اعتمد الأسلوب على حذف المسند إليه؛ نظرًا لضيق المقام، وقد ذكر الخطاب القرآني مساوقات البشري ممثلًا ذلك في هيئة الإقبال؛ لما يحمل فى معناه البشرى. و(الصَرَّة) الصيحة على عادة النساء حين يسمعن شيئًا يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب، "والصَرَّةِ " بفتح الصاد الصَّرَّة الضَّجَّة، وشدة الصياح(٥٣). والدلالة المصاحبة متعددة الوجوه، فبعضها يرجع إلى محاكاة الصوت، ومنها ما يظهر فى الصفة التعبيرية للعلامات اللغوية، ومنها ما يتمثل في الصفة التعبيرية للمعنى. وتبلغ الدلالات على هذه الوجوه المتعددة مستوى من الرمزية تستطيع معه تمثيل الشيء وتجسيده، ونقله إلى حيز المشاهدة .

ثم نلاحظ أيضًا انتقاء لفظة "فصكت" وظلالها الدلالية بدلًا من "ضربت"، صك الشَّيْء يصكه صكا إذا ضربه بِيَدِهِ أَو بِحجر، الصَّكُّ: الضَّرْبُ الشَّدِيدُ بِالشَّيْءِ الْعَرِيضِ، وَقِيلَ: هُوَ الضَّرْبُ عَامَّةً بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ(٥٤). ووضع اليد على الوجه (اللطم) لغة تفيد معنى التعجيب والدهشة بقرينة القول(عجوز)، قد بلغت من العمر ما لا يجدي معه الحمل، فقدمت السبب الحالي على السبب الرئيس في شبابها (عقيم)؛ أي اجتمعت عليها علتان؛ لذا عبّر عنها القرآن الكريم بـ(امرأته)؛ لانتفاء بعض مقومات الزوجية، وهو الحمل، وكان الرد الجامع المانع لتلك الدهشة التي تزيل هذا العائق: {قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الذاريات: ٣٠].

وللضحك مراتب، ومواقع في النفوس، وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علّة سروره. ولفضل خصال الضحك عند العرب، تسمّي أولادها «بالضحّاك» و «بسام» و «بطلق» و «بطليق». وكان العرب إذا مدحوا قالوا: «هو ضحوك السنّ، وبسّام الثنيات،، وهشّ إلى الضيف، وذو أريحية واهتزاز، وإذا ذموا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهم شتم المحيا، وهو مكفهّر أبدا، وهو كريه، ومقبّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخجل منضوج. (٥٥)

وتناول الشعراء تفاصيل الوجه في شعرهم، فوصفوا الثغر، والوجنتين، والخد، والجبهة، والشفاة، والأنف، والحواجب، حتى لوازم الضحك، فنجد ابن أبي حصينة يقول: (٥٦)

وَثَغرِكَ بَسامٌ وَلَكِنَّ ثَغرَها ... خِلافَكَ مَعسُولُ الثَّنايا مُفَلَّجُ

وقَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي عَبْدِ العَزِيْزِ بن مَرْوَانَ:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضاحِكًا ... غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ (٥٧)

يصف كُثَيِّرٍ واسع المعروف بأنه غمر الرداء، ويريد بالرداء البدن، والعرب تقول: فدىً لك ردائي، وفدىً لك ثوبي، يريدون البدن، والغمر: الماء الكثير، ويقَالَ: رجل غمر الخلق إذا كان واسع الخلق سخيًّا، والمعنى: أنه كثير العطاء سخي، إذا ضحك وسر وهب، وتمكنت رقاب أمواله من أيديهم، وتعذر انفكاكها كالرهن الحبيس في يد المرتهن، فاستعار الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرضه كما يصون الرداء ما يلقى عليه من مكروه، ووجه اجتماعها أن كليهما وقاية حفظ وصيانة، وفي قوله: "تبسم ضاحكا" وصف للممدوح بالبشر والطلاقة مع الوقار، وأنه لا يرفع صوته في الضحك فيما يسمونه (القهقهة).

ومن اللغة الناطقة للوجه في القرآن الكريم قوله تعالى: { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩].

والتبسم غير الضحك، فالتبسم مبادئ الضحك من غير صوت، والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي فإن كان فيه صوت يسمع من بعد فهو القهقهة، قال الراغب الضَّحِكُ: انبساطُ الوجه وتكشّر الأسنان من سرور النّفس، ولظهور الأسنان عنده سمّيت مقدّمات الأسنان "الضَّوَاحِكِ"(٥٨). والضاحِكَةُ: السنُّ التي بين الأنياب والأضراس، وهي أربعُ ضواحِكَ(٥٩). والضحك وَهُوَ دَلِيلُ الِانْكِشَافِ وَالْبُرُوزِ(٦٠)

واستعير الضَّحِكُ للسّخرية، كما في قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ} [الزخرف: ٤٧]، وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [المطففين: ٢٩]. وما كان من الأنبياء عليهم السلام فإن ضحكهم تبسم، وفي حديث سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا، حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ»(٦١). وربما حتم المقام ضحكه صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: هَلَكْتُ، وَقَعْتُ عَلَى أَهْلِي فِي رَمَضَانَ، قَالَ: «أَعْتِقْ رَقَبَةً» قَالَ: لَيْسَ لِي، قَالَ: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا» قَالَ: لاَ أَجِدُ، فَأُتِيَ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ- قَالَ إِبْرَاهِيمُ: العَرَقُ المِكْتَلُ - فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ، تَصَدَّقْ بِهَا» قَالَ: عَلَى أَفْقَرَ مِنِّي، وَاللَّهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنَّا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: «فَأَنْتُمْ إِذًا»(٦٢)

وقد كان تبسم سيدنا سليمان من النملة تبسم سرور من كيفية معرفتها بحاله، وحال جنوده، وما هم عليه من الشفقة والتقوى وتطبيق العدل بقرينة القول: {لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، وجاز أن تتعدد الدلالات في تبسمها، فقد يكون تعجبًا من حالها في كيفية تحذيرها بني نوعها، واهتدائها إلى تدبير مصالحهم؛ وجاز أن يكون ضحكه من كيفية بلاغتها، وجزالة ألفاظها، وحسن معانيها. وذكر الحال المؤكدة (ضاحكًا) بعد (الفعل تبسم)؛ دلالة على قوة تأثره عليه السلام بقولها، وكان داعيًّا لشكر ربه على ما اختصه من علم وفضل لم يؤته لأحد، وقد ذكر صراحة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [النمل: ١٥]؛ لذا شرع في الدعاء: {وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩]

وقد استعمل الخد دالًا على لغة بعينها، مثل تصعير الخد، فإذا رأينا إنسانًا يصعر خده، علمنا يقينًا دون أن نتكلم معه لنعرف شيخصيته أن متكبر مختال، وقد نهى القرآن عن تلك الصفة: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: ١٨]، والصَّعَر: مَيل فِي العُنق وانقلاب فِي الْوَجْه إِلَى أحد الشّقَّين، والتصعير: إمالة الخَدّ عَن النّظر إِلَى النَّاس تهاوُنًا وكِبْرًا، كَأَنَّهُ مُعْرض، والصَّعَرُ داءٌ يأْخذ الْبَعِيرَ فيَلْوِي مِنْهُ عُنُقَه ويُميلُه"(٦٣) والعرب تقول: والله لأقيمن صعره وصيده وقذله وصغاه وأدده(٦٤)، يقول المُتَلَمِّس:

وكُنَّا إذا الجبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ، ... أَقَمْنا لَهُ مِنْ مَيلِهِ فَتَقَوَّم

وقد عزز الخطاب القرآني النهي عن التكبر والزهو بانتقاء مادة (الصعر). واختلف في القراءة، وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: ولا تصعر بغير ألف. وقرأ الباقون: (تصاعر) بألف(٦٥) يقول الفراء:

وَلا تُصَعِّرْ، ولا تصاعر، والعربُ تكاد توفّق بين فاعلت وفعّلت فِي كَثِير من الكلام، ما لَمْ تُرِد فَعَلت بي وفعلتُ بك، فإذا أرادوا هذا لم تكن إلا فاعلت(٦٦) والمراد من النهي بالمفاعلة والتفعيل حتى لا يصير خلقًا. والصعر: داء يصيب أنف البعير، فيرفع رأسه ولا يكاد يخفضه فحسن تشبيه المتكبر بتلك الصورة الحسية الملزمة التنفير والأثر الكريه، وكأن التكبر داء أصيب به صاحبه فيرفع وجهه، ويلوي عنقه تبخترًا وكبرًا، وقد حسنت هذه الصورة؛ حيث إنها جسدت معاني الخيلاء، فرفع الخد تعالٍ عن جنس هو منه مخلوق؛ لذ أردفه بصورة حسية مكتملة الأركان (ولاتمش في الأرض مرحبًا)؛ إذ إن لوازم تصعير الخد هو المشي زهوا؛ لذا عقب بالتذييل: (إن الله لا يحب كل مختال فخور)؛ ليعبر عن الفعلين (لا تصعر)، و(ولاتمش في الأرض مرحًا)، على الترتيب المشوش؛ إذ إن الصعر يناسب الفخر، والمرح والتبختر يناسب الاختيال.

المحور الثالث: اليد وتعزيز القوة الإنجازية

في فضل اليد يقول الجاحظ : فاللسان الآن إنّما هو في منافع اليد والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلغها. فمن ذلك حظّها وقسطها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، ثم حظّها في التصوير، ثم حظّها في الصناعات، ثم حظّها في العقد، ثم حظّها في الدّفع عن النفس، ثمّ حظّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضّؤ والامتساح، ثم انتقاد الدنانير والدراهم ولبس الثّياب، وفي الدفع عن النفس، وأصناف الرّمي، وأصناف الضرب، وأصناف الطعن، ثم النّقر بالعود وتحريك الوتر؛ ولولا ذلك لبطل الضرب كلّه أو عامّته،...، ولا بدّ لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاصّ الخاصّ إذا كان أخصّ الخاصّ قد يدخل في باب العامّ(٦٧).

وقد جسَّد الخطاب القرآني عن طريق أسلوبية (اليد) المعاني وأبرزها في صورة محسوسة تزخر بالحياة والحركة، فيكون ذلك أدعى لتأكيدها ورسوخها في النفس، ويتضح هذا من قول الله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} (الإسراء: ٢٩) فقد أبرز الخطاب البخل في صورة اليد المشدودة إلى العنق المقيدة به، وهي صورة تنفر منها النفوس. كما جعلها صورة للندم والحسرة في قوله تعالى : {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} (الأعراف: ١٤٩) قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ} (الفرقان: ٢٧) وقوله: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} (الكهف: ٤٢) فكل هذه الآيات أبرزت الندم في صورة محسوسة مشاهدة.

ومن شدة الإشارة باليد فهي كوقع اللسان، وقد نهى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عن الإشارة بها إلى مكروه، ففي حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ: "حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ: "مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ صَفِيَّةَ

امْرَأَةٌ – وَقَالَ بِيَدِهِ كَأَنَّهُ يَعْنِي قَصِيرَةً – فَقَالَ: «لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ، لَوْ مُزِجَ بِهَا مَاءُ الْبَحْرِ مَزَجَتْ»(٦٨).
وقال امرؤ القيس بن حجر(٦٩):

وَلَوْ عَنْ نَثَا غَيْرِهِ جاءَني ... وَجُرْحُ اللِّسانِ كَجُرْحِ اليَدِ

ولليد إشارات منها التصفيق الذي يكون لغة الفرح، أو التصفيق مع التجحيظ المشير للغضب، ولها تخطيط يشير إلى لغات مختلفة(٧٠): وفي خطّ الحزين في الأرض يقول ذو الرّمّة:

عشيّةَ مالي حيلةٌ غيرَ أنني ... بِلَقط الحَصى والخطِّ في الدار مُولعُ

أَخـطُّ وأمحو الخـطَّ ثم أعيدُه ... بكـفيَّ والغِربانُ في الـدارِ وُقـعُ

وكم من شاعرٍ تغني بذكر اليد في أشعارهم، منهم طرفة بن العبد حيث يقول(٧١):

لِخَولةَ أطْلالٌ بِبُرقَة ثَهمَدِ ... تَلوحُ كَباقي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وُقوفًا بها صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقولونَ: لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَلّدِ

يقول دريد بن الصمة(٧٢):

تَنَادُوا، فَقَالُوا: أَرْدَتِ الخَيْلُ فَارِسًا.... فَقُلْتُ: أَعَبْدُ اللَّهِ ذَلِكُمُ الرّدي؟

فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلّى مَكَانَهُ، ... فَمَا كَانَ وَقّافًا، ولا طائِشَ اليَدِ

وقال البحتري (٧٣)

إنِّي هَجَرْتُكَ إذْ هَجَرْتُكَ جَفْوَةً ... لا العَوْدُ يُبْدِيْها وَلَا الإبْدَاءُ

أخْجَلتنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ ... ما بَيْنَنا تِلْكَ اليَدُ البَيْضَاءُ

وقال المتنبي يمدح محمّد بن عُبَيْدِ اللَّهِ العلَويّ إشارة إلى إحسانه وكثرة نعمه(٧٤):

لَهُ أيادٍ إليَّ سابقة ... أعَدُّ مِنْها وَلا أُعدّدُها

وقد قرنت بالندم، كما في عض اليد، وأو الأنامل، يقول الشاعر:

لا تنهرن غريبًا طال غربته ... فالدهر يضربه بالذل والمحن

حسب الغريب من الدنيا ندامته...عض الأنامل من شوق إلى الوطن

فإن الحزين، والمغيظ، والنادم والمتأسف يعض أطراف أصابعه جزعًا، قال الله عز وجل: {وَإِذَا

خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [آل عمران: ١١٩] ، وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٢٧] وعض اليدين والأنامل، والسقوط في اليد، وأكل البنان لغة الغيظ والحسرة والندم، وسبب نزول الآية "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ- فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ: كَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ يَحْضُر النبيَّ وَيُجَالِسُهُ وَيَسْتَمِعُ إِلَى كَلَامِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، فَزَجَرَهُ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ كَانَا مُتَحَالِفَيْنِ، وَكَانَ عُقْبَةُ لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا صَنَعَ طَعَامًا فَدَعَا إِلَيْهِ أَشْرَافَ قَوْمِهِ، وَكَانَ يُكْثِرُ مجالسة النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فَقَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَنَعَ طَعَامًا فَدَعَا النَّاسَ وَدَعَا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إِلَى طَعَامِهِ، فَلَمَّا قَرَّبَ الطَّعَامَ قَالَ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: مَا أَنَا بِآكِلٍ مِنْ طَعَامِكَ حَتَّى تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَأَكَلَ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مِنْ طَعَامِهِ. وَكَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ غَائِبًا، فَلَمَّا أُخْبِرَ بِقِصَّتِهِ قَالَ: صَبَأْتَ يَا عُقْبَةُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا صَبَأْتُ وَلَكِنْ دَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ فَأَبَى أَنْ يَطْعَمَ مِنْ طَعَامِي إِلَّا أَنْ أشهد له، فاستحيت أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي وَلَمْ يَطْعَمْ، فشهدت له وطعم. فَقَالَ أُبَيٌّ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَرْضَى عَنْكَ أَبَدًا إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ وَتَطَأَ عُنُقَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عُقْبَةُ فَأَخَذَ رَحِمَ دَابَّةٍ فَأَلْقَاهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: لَا أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتُ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ. فَقُتِلَ عُقْبَةُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا. وَأَمَّا أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ فقتله النبي صلى اللَّه عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمُبَارَزَةِ(٧٥)".

وعظَّم الخطاب القرآني الجرم بلفظة العض على اليدين، وبتخصيص (الظالم)؛ إذ اللام للعهدية؛ بقرينة ذكره في أسباب النزول، وقد يكون (ال) في الظالم؛ لاستغراق الجنس كله، ولكن السياق يرجح الأول، ثم شرع عقبة بن معيط في التمني المبني على خروج الكلام مخرج المستحيل في عدم اتباعه الرسول المعهود بالهداية؛ لذا عرف الرسول بـ (ال) الدال على العهدية، وإيثار الخطاب القرآني لفظة: (اتخذت)؛ لتكثيف عنصر الاهتداء، فهذا السبيل هو سبيل النجاة: {يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}، وكأن تحولات البنية اتخذت هذا المسار:

- ليـس لي أن أتخذ مع الرسول سبيلا .
- أتمنى أن أتخذ مع الرسول سبيلا .
- لن يتحقق أن أتخذ مع الرسول سبيلا
- ليــت لى أتخذ مع الرسول سبيلا .

وتمتد هذه الاستحالة إلى الرغبة الدفينة لتكثف هذا الإحساس. فالمطلوب-هنا- ليس مستحيلًا فحسب، فالاستحالة تدل عليها (ليت) بوضعها اللغوي، أمّا مدلولها البلاغي فهو اليأس الموبق،

واستحضاره الويلات، وتكراره النداءات بالمستحيلات: {ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا}؛ فكأنه والحال هذا يقول لها: يا حسرة هذا أوانك فأحضري؛ فأنزل الويلات منزلة العاقل؛ كناية عن سوء حاله؛ لاتباعه أبي بن خلف الذي كنى عنه الخطاب القرآني بـ (فلان)؛ لعدم الاعتداد بذكره. و(فلان) قد يكون أبي بن خلف على جعل (ال) في (الظالم) للعهدية، وقد يكون (فلان) هذا للعموم، بجعل (ال) لاستغراق الجنس. وحسن الارتباط بين الآيتين؛ إذا إن اتباع الرسول، يقتضي البعد عن الذين يصدون عن سبيله، فهو من (كمال الاتصال)؛ لوقوع الجملة الثانية بدل اشتمال من الجملة الأولى.

ومقتضى هذا الحرص على اصطفاء الأخلاء، والرغبة في مخالطة الأخيار، والنهى عن مجالسة الأشرار، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»(٧٦)

وقد يكون وضع اليد على الفم عند التعجب، أو الإشارة إلى السكوت، أو عند الضحك والاستهزاء، أو عند إسكات غيرك ومنعه من الكلام، وكل ذلك محتمل في قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [إبراهيم: ٩]، وتلازم هذه العلامات في العرف معاني نفسية ولغة إشارية دالة على التعجب، وقد جاء في سياق الحرص على إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم قومه من الظلمات إلى النور كحرص الرسل من قبله ضاربًا لهم الأمثال ممن تواتر على أسماعهم من أخبار كمثل قوم نوح عليه السلام، وممن يمرون على أنقاضهم مثل قوم هود، وقوم صالح، ثم شمل الخطاب جميع من أتى من بعدهم من أمم لا يعلمهم إلا الله، كناية عن كثرتهم، وقد خاطبهم بالغيبة؛ لتسفيه عقولهم، وبالاستفهام الإنكاري؛ لاستنكار رؤيتهم لمشاهد يرونها رأي العين وكيفية اقتران ذلك بعدم فطنتهم لدلالة تلك الآثار: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وفي لغة (رد اليد على الفم) وجوه؛ يقول الزمخشري: "فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى: {عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: { إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ}، أى هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقناطًا لهم من التصديق. ألا ترى قوله: { فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ} وهذا قول قوى. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون(٧٧). وهذه من مبتكرات القرآن الكريم، قال ابن قتيبة: "ولا أعلم أحدًا قال: ردَّ يدَه في فيه؛ إذا أمسك عن الشيء"(٧٨)

واستعمال الفعل (ردوا)؛ دلالة على تكرار الفعل منهم؛ لذا استعمل الظرفية (في)؛ لدلالتها على التمكن من فعلهم؛ إذ إن الفعل إذا تكرر تقرر، وهذا يدل من جانب آخر على سرعة مبادرتهم برد أيديهم في أفواههم، والحاصل قولهم: [هذا جوابنا ليس لكم عندنا غيره، فاسكتوا ولا تصروا على دعوتكم هذه]، وعلى نهج ذلك قولك لمن تريد ألَّا تسمع منه شيئًا: [كما أنا لا أصغي لك فأنت لا تتكلم]. ولم يقل الخطاب القرآني: (وضع أيديهم في أفواههم)؛ إذ إنَّ هذا له وجه واحد فقط، وهو عدم الغاية في ردهم هم فقط، وإذا حدث هذا ضاعت الدلالات الاحتمالية جميعها السابق ذكرها. أقول إن الخطاب القرآني لم يجر ذلك على سبيل المجاز، بل أجراه على سبيل الحقيقة؛ إذ إنه أبلغ في الرد، وأوجز في العبارة، فقد جمع بين القول والفعل؛ مبالغةً في الإنكار. ولك أن تجرب ذلك بنفسك لمن يريد أن يقنعك فتضع يديك على فيه.

أقول تكرارًا: إن الرد أبلغ من الوضع، فكأنه جعل الموعظة لا تخرج من فيه، فالرد جحد للنعمة، وإنكار لها، فقد جحدوا بفعلهم هذا تلك الشرائع السماوية على مختلف العصور، تكذيبًا لرسلهم، وكفرًا لما جاءوا به. وهذا يدل على أن ملة الكفر واحدة في جميع الأمم، وأن قولهم واحد: { إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}، وقد أكدوا قولهم هذا بأكثر من مؤكدٍ؛ تعزيزًا لمحتوى إنكارهم، وزيادة في شدة بغضهم لما جاءهم من البينات، فابتديء الخطاب بتغطية النعمة بمادة الكفر: (كفرنا)، وقبل أن يسأل متلقٍ بما كفرتم، جاءهم الجواب: (بما أرسلتم به) على سبيل الجزم واليقين؛ تهكمًا واستهزاء بأن ما جاءوا به مرسل به من الله، ثم جاء عطف الشك في محتوى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، والشك فيها كفر، وعلى ذلك فهو لا ينافي الكفر بدءًا وإنما هو تأكيد له. وزاد الشك درجات بوجود القاطعة الأسلوبية (في) التي تدل على كونهم في الشك منغمسين، ووصف الشك بـ (المريب)؛ لتأكيد ماهيته، كقولهم: ليل أليل، وأحمر قان، وأصفر فاقع، وأخضر أدهم، أبيض ناصع، وأسود غِربِيب، وحقّ أبلج، وباطل لَجْلَج.

ومن لوازم اليد الأصابع، وقد وظف القرآن الكريم لفظة الأصابع لغة قاطعة في الصد والإعراض وعدم الإقبال، وسد منافذ القبول في قوله تعالى: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح: ٧] وقد جاءت الصورة في سياق إعراض قوم نوح عليه السلام عن الدعوة، ونظرًا للمبالغة الشديدة في كراهيتهم للموعظة الحسنة التي صورها الخطاب القرآني في قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [العنكبوت: ١٤]، فقد جاءت الألفاظ راسمة لذلك الصد والجحود في الانتقال من الكلي إلى الجزئي: (جعلوا أصابعهم)، وفي طمس معالم التدبر: (واستغشوا ثيابهم)؛ ليعكس للمتلقي حجم كراهة الحق كمًا وكيفًا، قال الراغب: "جعلوها غِشَاوَةً على أسماعهم، وذلك عبارة عن

الامتناع من الإصغاء، وقيل: (اسْتَغْشَوْا ثيابهم) كناية عن العدو كقولهم: شمّر ذيلا وألقى ثوبه، ويقال: غَشَيْتُهُ سوطا أو سيفا، ككسوته وعمّمته"[٧٩]. يبرهن عليه الفعل وتوكيده (أصروا إصرارًا) صوتًا ومعنى، زيادة الإصرار مدمج مع الاستكبار والترتيب المعنوي المفيد التدرج في الدعوة (ليلًا ونهارًا)؛ من السر إلى العلانية، ثم الجمع بين الحالين؛ ليكني عن عظيم الدعوة مقابلة بشدة النكران.

وقد يكون جعل الإصبع في الأذن لغة الخيفة؛ نظرًا لشدة الصوت، وقصفة الرعد، والخوف من خطف البصر كما في قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة: ١٩]

المحور الرابع: الساق وتعزيز القوة الإنجازية

جاء وصف الرجل والساق في الشعر العربي كثيرًا، وقد تطرق ذلك إلى وصف الحيوانات، وقَامَ فلانٌ على ساقٍ: إذا عُنِيَ بِالْأَمر وتحزَّم لَهُ،...، قَالَ أهلُ اللُّغَة: قيل لِلْأَمْرِ الشَّديد ساقٌ لِأَن الْإِنْسَان إِذا دهمْته شدَّةٌ شمَّرَ لَهَا عَن سَاقيه ثمَّ قيل لكل أمرٍ شديدٍ يُتَشَمَّر لَهُ ساقٌ."[٨٠]. والكشف عن الساق يكون في شدة الأمر وصعوبة الخطب، وأصله في الروع والهزيمة، وقد جاء التشمير عن الساق في موطن الشدة كما في قول أبي جندب الهذلي[٨١]:

وكُنْتُ إذا جاريْ دعا لِمَضُوفَةٍ ... أُشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئْزَري

ومنه قول دُرَيْد بن الصمَّة يرثي أَخَاهُ[٨٢]:

كَمِيشُ الإِزَارِ، خَارِجٌ نِصْفُ سَاقَهُ، ... بَعيدٌ مِنَ الآفاتِ طَلاّعُ أَنْجُدِ

وقال سعد بن مَالك بن ضبيعة بن قيس بن ثَعْلَبَة جد طرفَة بن العَبْد[٨٣]

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ ساقِها، ... وَبَدَا مِنَ الشرِّ الصُّراحْ

وقال المتنبي[٨٤]:

ركبتُ مشمرًا قدمي إليها ... وكلّ عُذافرٍ قلقِ الضُّفُورِ

ويضرب به مثلًا في الهداية والرشد، قال طرفة[٨٥] أن للفتى عقلًا يعيش به مدة سعيه وحياته؛ ونهوضه بساقه في أمره.

للفَتى عقْلٌ يَعِيشُ به ... حيثُ تَهْدي ساقَهُ قَدَمُهْ

وقال زَيْدُ الْخَيْلِ الطَّائِيُّ (٨٦)

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا ...وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

وقال جرير يمدح هلال بن أحوز المازني، ويفخر بأبناء إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ويهجو الفرزدق وبني طهية (٨٧)

ألا ربَّ سامي الطَّرف منْ آلِ مازنٍ ... إذا شمرتْ عنْ ساقها الحربُ شمرا

جاء الكشف عن الساق في القرآن الكريم مرتبطًا بمواطن الشدة والخوف، كما في قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: ٤٢] ، ومن أَسمَاء يَوْم الْقِيَامَة يوم كشف السَّاق"(٨٨). ويقال للإنسان إذا وقع في أمر عظيم، شمَّر عن ساقه، فاستعيرت الساق في موضع الشدة اتساعا والتعبير كله على سبيل الاستعارة التمثيلية أو التصريحية المركبة، فقد استعار الخطاب القرآني الكشف عن أمر الساعة والحال فيها، وهو أمر عظيم، بالكشف عن الساق، فجعل الكشف مبالغة فيما كانت عليه من ستر. يقول ابن سيده: قَامَت الْحَرْب على سَاق، والسَّاق إِذا أريدت بهَا الشدَّة فَإِنَّمَا هِيَ مشبهة بالساق هَذِه الَّتِي تعلو الْقدَم، وَإِنَّهُ إِنَّمَا قيل ذَلِك، لِأَن السَّاق هِيَ الحاملة للجملة والمنهضة لَهَا، فَذكرت هُنَا لذَلِك تَشْبِيها وتشنيعا(٨٩)؛ لأَن النَّاس يكشفون عن سوقهم، ويشمرون للهرب عند شدَّة الأمر. والأصل فيه أن الإنسان إذ فزع من شيء أسرع في مشيته، وشمر عن ثوبه فكشف عن ساقه

وقد يكون الكشف عن الساق على سبيل الحقيقة، والمقصود بها هو ساق المولى عزوجل، يدعم ذلك حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»(٩٠)، وحديث عَبْد اللَّهِ بْن مَسْعُود: "يَتَمَثَّلُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْخَلْقِ حَتَّى يَمُرَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» ، قَالَ: " فَيَقُولُ مَنْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَيَنْتَهِرُهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَيَقُولُ: مَنْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا "، قَالَ: " فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ رَبَّكُمْ؟ "قَالَ: " فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَهُ إِذَا اعْتَرَفَ لَنَا عَرَفْنَاهُ " قَالَ: «فَعِنْدَ ذَلِكَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلَّا خَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا، وَيَبْقَى الْمُنَافِقُونَ ظُهُورُهُمْ طَبَقًا وَاحِدًا كَأَنَّمَا فِيهَا السَّفَافِيدُ»(٩١) والسُّفُّود – حَدِيدة ذاتُ شُعَب مُعَقَّفةٌ يُشْتَوَى بهَا؛ لأنه يعلق بما يشوى به علوق السافد. العود الذي تحرك به النار، والمُفْتَأد: التنور، وَهُوَ مِنْ فأَدت اللَّحْمَ وافتأَدته إِذا شَوَيْتَهُ. وَلَحْمٌ فَئِيدٌ أَي مشويٌّ. والفئِيد: الخبز المفؤُود واللحم المَفْؤُود قال النابغة يصف السهم (٩٢)

كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَأَدِ

ومعنى يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ في معنى: يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل(٩٣). وعظم تعزيز القوة بتنكير لفظة الساق؛ لما يناسب الموقف من هيبة وجلال، فإذا كانت الساق مستعارة للشدة فالتنكير يفيد التهويل، وإذا كانت على الحقيقة فالتنكير للتعظيم يقويه تنكير لفظة (يوم)؛ أي اذكر يوم يشتد الأمر بأنه يحدث كذا وكذا، فحذف الفعل؛ لضيق المقام مبالغة في تهويله، وتذكيرًا لما يحدث في هذا اليوم فتصير الموعظة أشد، والنصح أبلغ. ثم اذكر في هذا اليوم يوم يدعون إلى السجود؛ للخلاص من هيبة الموقف، فيكون سجود ضراعة وابتهال، فيخر المؤمنون سجدًا يقولون: نعبد الله لا نشرك به شيئًا، ويصير المنافقون عظامهم متصلبة كالسفود، وهي حديدة الشواء، لا يستطيعون ثنيها، حتى أنها تصير كأنها عظام بلا مفاصل، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه تصير طبقًا واحد؛ فضحًا لأمرهم، وكشفًا لنفاقهم فينقطع رجاؤهم في النجاة.

وعزز قطع الرجاء بهيئة أخرى غير ملفوظة وهي (خشوع الأبصار) في الآية التالية: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم: ٤٣]؛ وخشوع البصر إشارة إلى الذلة والانكسار، أضف إلى ذلك وضعية الجسم في طأطأته وانحنائه، وتوظيف البصر مجاز مرسل علاقته جزئية؛ إذ إن الجسم كله تابع له، والعين عنوانه. ثم زاد الذل الملحق بهم علانية بدلًا من اللغة الإشارية الممثلة في الحال، فأتبعها بحال أخرى: (ترهقهم ذلة) مقدمًا هذه وتلك على الجملة الاعتراضية: { وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون}؛ لتأكيد ما سبق ذكره من تصلب لأجسامهم فصارت جسدًا لا قدرة له على الانحناء مثل السفود، وقد كانوا بلا علة أو مرض يمنعهم من العبادة في دنياهم؛ لذا وظَّف لفظة السلامة (وهم سالمون)؛ مع إبراز المسند إليه؛ للمفارقة بين الحالين، حال الدنيا وما هم عليه من فسحة في العبادة، ونصح من الرسل، وحال الآخرة في انقطاع الرجاء حتى انتفى تمكنهم من طواعية أجسامهم لما يريدونه.

وقد جاء ذلك في سياق صعوبة الموت، حين تبلغ الروح التراقي، ويدنو زهوقها، ويكون المكان مكان احتضار، والمآل أول منازل الآخرة، فلا تقوى رجلاه على حمله، بل تموتان، ثم تلتفان إلى المساق الأخير: {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} [القيامة: ٢٩] يقول المجاشعي: والمعنى: والتفت شدة آخر الدنيا بشدة أول يوم الآخرة، وقيل: المعنى: اشتد الأمر عند نزع النفس حتى يتقلب ساق على ساق، ويلتف بها عند تلك الحال(٩٤).

ويأتي ذلك في سياق الاستعداد للأمر كما في قوله تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤]، شَمَّر إزارَه: إذا رفعه. وشَمَّر للأمر: إذا خفَّ فيه، يقال: شَمَّر

للأمر أذياله"[٩٥]

وروى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك؛ ليزيدها استعظاما لأمره، وتحققا لنبوته، وثباتا على الدين. وزعموا أنّ الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم،...، فقالوا له: إن في عقلها شيئا، وهي شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما[٩٦]، ثم صرف بصره وناداها: {إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ}.

وذكر أحداث القصة، وكيفية الدخول، ومنظر المكان يدل على عظم الحضارة ومكانتها، وقد عزز المحتوى منطلقات عدة، مع كونها ملكة تتمتع بالذكاء والمكانة بين قومها، وعيشة الملوك التي تنم عن الرفاهية، إلا أن حين دخولها القصر كشفت ثوبها وشمرت عن ساقيها؛ ظنًا منها أنها ستغرق فيه، وهذه دليل على عظم حضارة سليمان، وتفوقها على الملوك آنذاك. والصرح: بَيت وَاحِد يبْنى مُنْفَردا ضخما طَويلا فِي السَّمَاء. وَقيل: هُوَ كل بِنَاء متسع مُرْتَفع. وَقيل: هُوَ الْقصر. وَقيل: هُوَ كل بِنَاء عَال مُرْتَفع، وصَرْحَةُ الدَّار: ساحتها[٩٧]. بـ(المُمَرَّد): المُمَلَّس، مَرَّد البناءَ: أي ملَّسه. ومرَّده: أي طوَّله. (٩٨) والأمرد في كلام العرب: الذي خداه أملسان لا شعر فيهما. أخذ من قول العرب: شجرة مرداء: إذا سقط ورقها عنها[٩٩]. وزاد عظمة الوصف بيانًا بوصفه بـ(قوارير)، القارُورُ: مَا قَرَّ فِيهِ الشرابُ وَغَيْرُهُ، وَقِيلَ: لَا يَكُونُ إِلا مِنَ الزُّجَاجِ خَاصَّةً. وَالْقَارُورَةُ: حَدَقَة الْعَيْنِ، عَلَى التَّشْبِيهِ بِالْقَارُورَةِ مِنَ الزُّجَاجِ لِصَفَائِهَا وأَن المتأَمّل يَرَى شَخْصَهُ فِيهَا(١٠٠). فالصرح مملس، وذو شفافية، يظهر ما يستقر في قعره، وقد وضع فيه من معالم البحر كالسمك وغيره، فاجتمع فيه ما جعلها شمرت عن ساقيها، وبدا لها ما اختصه سيدنا سليمان من ملك وحضارة لم تكن لأهل اليمن؛ وإنما فعل ذلك عمدًا؛ ليزيدها استعظاما لأمره وتحققا لنبوته، وإيمانًا بدعوته، فاعترفت بضلالها في عبادة مالا يستحق، وأعلنت إسلامها لخالق الكون رب الجمال والجلال.

المحور الخامس: الرأس وتعزيز القوة الإنجازية

للرأس لغة معروفة عند العرب، فقد تدل على السؤدد، أو الإذلال والإهانة، أو الغضب والانفعال، وشدة الحنق والغيظ، أو الإعراض والصد، أو الإشارة إلى إقامة الشعائر طاعةً وعبادة، وقد تكون لغة الشيب والكبر، ويضرب المثل به في عدم الاهتمام، كقولنا: رجل أشعث. وفي حديث جابر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّم رأى رجلا وسخة ثيابه فقال: أما وجد هذا شيئا ينقي به ثيابه؟ ورأى رجلا شعث

الرأس فقال: أما وجد هذا شيئا يسكن به شعره(١٠١). والأشعث متلبد الشعر مغبره الذي لا يدهنه ولا يكثر غسله، وكان اسم الأشعث: معدي كرب وكان أبدًا أشعث الرأس، فغلب عليه. وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١٠٢)

وقد امتدحها الجاحظ بقوله: "ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع، عظيم الرأس. ولذلك قال ابن سنان الجديدي، لراشد بن سلمة الهذلي: «ما أنت بعظيم الرأس ولا ثقيل السمع فتكون سيدا، ولا بأرسح فتكون فارسا»(١٠٣). وقد امتدحها على ابن أبي طالب في أعظم تشبيه، ومنزلة الرأس من الجسد، كمنزلة الصبر من إيمان العبد، فإذا زال الصبر زال الإيمان، مثلما إذ قطع الرأس زهقت الروح، وقد أكثر الشعراء من ذكر الرأس في أشعارهم، على سبيل المثل(١٠٤):

ابيضَّ منّي الرأسُ بعدَ سَوادِ ... ودعا المشيبُ خليلتي لبِعادِ

واستُحصدَ القومُ الذي أنا فيهمُ ... وكفى بذاكَ علامةً لحصادِ

وقال امرؤ القيس(١٠٥):

وحَارَ بَعْدَ سَوَادِ الرَّأْسِ جُمَّتَهُ ... كمِعْقَبِ الرِّيطِ إِذْ نَشَّرْتَ هُدَّابهْ

وقال لبيد بن ربيعة(١٠٦):

قالتْ غداةَ انتجَيْنا عندَ جارَتها: ... أنتَ الذي كنتَ، لوْلا الشّيبُ وَالكِبرُ

فقلتُ: ليسَ بَياضُ الرَّأسِ من كِبرٍ ... لوْ تَعلَمينَ، وَعندَ العالِمِ الخَبرُ

وتعد الرأس لغة إشارية تجسد معاني لا تستطيع اللغة المنطوقة تجسيدها، ويظهر ذلك في قوله تعالى: {وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠]، قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣]، وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } [مريم: ٤] وقوله تعالى: {قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: ٩٤]. قوله تعالى: {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} [الأنبياء: ٦٥] قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢] قوله تعالى: { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح:

٢٧] قوله تعالى: {إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥]

وقد أبان الخطاب القرآني عن لغة الغيظ وشدة الغضب والانفعال في قوله تعالى: {وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وقد تمثل الحدث في إلقاء سيدنا موسى عليه السلام الألواح من يده؛ بيانًا على فرط دهشته، وشدة ضجره، حمايةً لدين الله وحرصًا على الإيمان، فعبر عن ذلك بفعلين؛ إلقاء الألواح، وجر الرأس، تأنيبًا وتأديبًا لهارون عليه السلام، وهذا يدل على تقصيره في دعوته، يدعم ذلك ضعف حجته في الخطاب القرآني: {قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: ٩٤].

وما كان من هارون عليه السلام إلا الرد على تلك اللغة الإشارية بلغة منطوقة قائلًا آخذًا بمبدأ العبور ليصل إلى مبدأ الخلاص، وقد عبَّر الخطاب القرآني عن ذلك بمستتبعات التركيب، فحذف أداة النداء؛ لضيق المقام، وهول الموقف والرعب الذي اعتراه، مؤكدًا كلامه لإنزال سيدنا موسى عليه السلام منزلة المتردد في تصديق قوله؛ لعظم الموقف وشدته، وكفرهم بعبادة الله، واتخاذهم عجلًا له خوار إلهًا يعبد من دونه، معنونًا خطابه بـ: (ابن أم)؛ لكونه أدعى لتهدئة الغضب بجلب أواصر المحبة واستحضارها، وكأنه تذكير منه بحق الأخوة التي جمعت بينهما، موظفًا لفظة (الأم)؛ إذ إن الأم عنوان الرقة والاستعطاف، لا سيما حق الرضاعة التي جمعتهما، ثم أبدى حجته بضعف قوته بقوله: (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)، والحجة الأولى تمثلت في كونه ضعيفًا لا ناصر له من قومه، والأخرى تظهر من إرادتهم قتلهم، ولفظة القتل تعنى أنه حاججهم، وما كان منهم إلا أنهم تمالؤوا عليه؛ ليقتلوه. ثم يعبر عن فن الوصول ناهيًّا إياه نهي التماس ألّا يشمت به الأعداء، مستعيرًا اللفظة لمن حادوا عن الطريق المستقيم بعبادتهم غير الله تعالى، مع تبرئته نفسه من هذا الظلم، والظلم هنا ظلم النفس بكفرانها بعبادة غير الله. وتتعدد دلالة النهي، فيجوز أن يكون النهي على ألّا يحلق به ضرٌّ أو قتل مثلما حكم موسى عليه السلام على من عبدوا العجل بالقتل، ولكن عفو الله أعظم: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ٥٤]

وقد جاءت اللغة الإشارية {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣]، جاءت الخطاب القرآني في سياق بيان هيئة الكفار يوم القيامة، معلنًا عن لغة إشارية متمثلة في شخوص الأبصار في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢]، وشخوص البصر يعني أنه لا يستقر في مكانه، يلتفت يمنة ويسارًا، " شخَص بصرَه شخَص ببصرِهِ:

أطال النظر فاتحًا عينيه بدون أن يطرف بهما في حالة تأمُّلٍ أو انزعاج. شخَص إلى فلان: حدَّق النظر إليه "شخَصت إليه الأبصارُ: اتّجهت إليه الأنظارُ، كناية عن الإنصات وكمال التنبّه"[١٠٧]

وأقام الخطاب القرآني على التهديد والوعيد، بأسلوب التوكيد: (إنما)، والدلالة الصوتية المعتمدة على قوة المحتوى في الفعل: (يؤخرهم)، وتنكير (يوم) مع العلم به؛ لدلالة تعظيمه وشدة تهويله، ثم زاد المحتوى تهديدًا بالتصوير والتجسيد في منظر الظالمين وهيئتهم، منبئًا عن الحال، وهو شخوص البصر، ثم أردفها بأربعة أحوال؛ الأولى الإهطاع، "التَّجْمِيحُ، وَالتَّجْمِيحُ: النَّظَرُ بِخَوْفٍ"[١٠٨]. الْإِهْطَاعُ: الإِسْرَاعُ فِي العَدْو. وأَهْطَعَ، إِذَا مَدَّ عُنُقَه وصَوّبَ رأسَه[١٠٩]. والهَطَلَّعُ: الجَسِيمُ المضطَرِبُ الطُّولِ[١١٠]. المهطِع: الَّذِي ينظر فِي ذلّ وخشوع. والثانية: المُقْنِعُ: الَّذِي يرفع رَأسه وَينظر فِي ذلّ[١١١]. والثالثة: لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، والرابعة: أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وقد صور الهيئة وقد تملكها الخوف بشخوص البصر مع إدامته، مما أنتج عنه الاضطراب نفسيًّا وجسديًّا، فأصبح جسده مختلًا، ورأسه مطأطأ منكسًا، وعقله حائرًا فارغًا، وفي تشبيهه بالهواء يدل على اختلال التوازن، فلا فهم، ولا عقل، ولا قوة ولا رأي، ولا إرادة ولا اختيار.

وقد تشير لغة الرأس إلى إقامة شعائر الله؛ حبًا وطاعة وعبادة كما في قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧]. حلَّق الشَّعْرَ: بالغ في إزالته،حلَّق الشَّيءَ: جعله كالحلْقة وهي كلّ شيء استدار[١١٢] قَصَّرَ من شعره تقصيرًا إِذا حذف مِنْهُ شَيْئا وَلم يستأصله[١١٣]. وقد جاءت فى سياق تصديق رؤيا رسول صلى الله عليه وسلم، وتكذيب قول المنافقين، ذلك أن رسول الله قال:"إنّي قَدْ رأَيْتُ أنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَ المسجد الحرام محلقين رُءوسَكُمْ ومقصرين."فلما نزل بالحُديبية، ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، وقالوا: أين رؤياه[١١٤] فقال تعالى ذلك الخطاب القرآني مؤكدًا إياه بأكثر من مؤكد: (لقد+ لتدخلن) وقد صاحب الأسلوب إظهار لفظ الجلالة:(الله)؛ توكيدًا لصدق رؤيا صلى الله عليه وسلمَ، وكأن المعنى: إني لم أره يدخلها هذا العام، وليحدثن ذلك.

وقد تشير لغة الرأس إلى تمكن الشيخوخة من الإنسان كما في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } [مريم: ٤] ، بدأ الخطاب القرآني بفن التمهيد للوصول إلى المبتغى؛ إذ إن حال الإنسان إذ هرم وضعفت قواه احتاج إلى سند يدعمه ويتولاه، وقد استخدم أسلوبية النداء القائم هلى حذف الأداة؛ لقرب العابد من معبوده، متخذًا لغة التضرع والابتهال المقترن بالحياء موظفًا اسم الله (الرب)؛ لكونه هو سبحانه المتعهد بتربيته، المتولي أمره، مؤكدًا على البعد الزمني المفهوم ضمنيًّا من لفظة (الوهن)، والأسلوب يتمتع بإيجاز (القِصَر)؛ لاحتوائه

على معانٍ عديدة تشمل ضعف الجسم كله، فبدلًا من أن يعدد ضعف قوة جسمه تفصيلًا، جيء بالأسلوب الاستعاري التبعي، فاستعير الوهن للضعف مع إضافة ذلك للعظم، ولم يقل: [ضعف جسدي]؛ إذ إن العظم حال في الجسد، فهو مجاز علاقته حالية، فإذا وهن العظم فهذا أدعى إلى وهن الجسم كله، ثم إنه عرف (العظم)؛ ليشمل عظامه جميعها لا بعض منها، فالتعريف أولى بالشمول والإحاطة؛ إذ إنها لجنس العظم. ثم إسناد الاشتعال إلى الرأس؛ لإفادة شمول الشيب الرأس، فيزداد المحتوى القضوي تأكيدًا على الضعف الذي اعتراه على سبيل الاستعارة المكنية التبعية في الفعل، فقد شبه شواظ النار بالشيب بجامع اللون الإنارة وابيضاض اللون فيها، وحذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية في الاسم، ثم شبه تفشي النار في الرأس بالاشتعال، وحذف المشبه، واشتق من المشبه به الفعل اشتعل بمعنى تفشى على سبيل الاستعارة المكنية التبعية في الفعل، والذي تؤكده الدراسة أن الأسلوب مستعمل تمثيلًا لكبر السن مع تمكن الضعف منه، وزاد ذلك توكيدًا بجعل التمييز محولًا عن فاعل؛ إذ أصل التركيب: [اشتعل شيب رأسي مني] ، وهذا ربما يحيل المتلقي إلى بعض شعره، وليس كله، فآثر الخطاب القرآني التعبير المحول، مع التحرر من الإضافة: [اشتعل رأسي شيبًا]؛ وتوظيف (ال) للعهد الذهني. كما آثر العدول فلم يقل: [اشتعل الرأس شيبًا مني] على نسق: [وهن العظم مني]، فذكر هناك ما حذف هنا؛ لإحالة المتلقي إلى المقدمات المؤكدة، ثم ازداد توسلًا ورجاءً بقوله: {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}؛ لعظم استجابة ربه سبحانه وتعالى طيلة عمره، فأعلن ضمنيًّا عن استجابة الله له، وإحاطته برحمته، وشموله في عنايته طيلة عمره، فإذا كان هذا حال المدعو، فإن حال الداعي ازداد رجاء فيه؛ يقينًا فيمن يجيب المضطر إذا دعاه، {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٢].

المحور السادس: وضع الجسم وتعزيز القوة الإنجازية

وقد يكون وضع الجسم دالًا على لغة بعينها، كالتبختر، أو التكبر والتعالي، أو الذل والانكسار، أو الترقب الدال على الخيفة والحذر، ومنه: نأى بجانبه، والنَّأْيُ: البُعْد. وَيُقَال للرَّجل إذا تكبّر وأَعْرض بوَجْهه: نَأَى بِجَانِبه، أَنأى جانبه من وَراء، أَي: نحّاه (١١٥). قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: أَنشدني الْمُبَرِّدُ:

أَعاذِل، إنْ يُصْبِحْ صَدايَ بِقَفْرةٍ ... بَعِيداً، نَآنِي زائِرِي وقَرِيبي

قَالَ الْمُبَرِّدُ: قَوْلُهُ نَآنِي فِيهِ وَجْهَانِ: أَحدهما أَنه بِمَعْنَى أَبعدني كَقَوْلِكَ زِدْته فَزَادَ وَنَقَصْتُهُ فَنَقَصَ، وَالْوَجْهُ الآخَرُ فِي نَآنِي أَنه بِمَعْنَى نَأَى عَنِّي(١١٦).

ضَمَّنَ أَبُو الفَضْلِ ابْنُ العَمِيْدِ شِعْرَهُ بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ هَذَا وَكَتَبَ بِهِ إِلَى أَبِي الحَسَنِ العَبَّاسِيّ

وَهُوَ(١١٧).

أَشْكُو إِلَيْكَ زَمَانًا ظَلَّ يَعْرِكُنِي ... عَرْكَ الأَدِيْمِ وَمِنْ بعْدِي عَلَى الزَّمَنِ

وَصَاحِبًا كُنْتُ مَغْبُوْطًا بِصُحْبَتِهِ ... دَهْرًا فَغَادَرَنِي فَرْدًا بلا سَكَنِ

هَبَّتْ لَهُ رِيْحُ إِقْبَالٍ فَطَارَ بِهَا ... نَحْوَ السُّرُوْرِ وَأَنْحَانِي إِلَى الحَزَنِ

نَأَى بِجَانِبِه عنّي وَصَيَّرَنِي ... مَعَ الأَسَى وَدَوَاعِي الشَّوْقِ فِي قَرَن

وَبَاعَ صَفْوَ وِدَادٍ كُنْتُ أَقْصُرُهُ ... عَلَيْهِ مُجْتَهِدًا فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ

وقَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ الطَّائيُّ(١١٨):

لَيْسَ أَخو الْحَربِ الْعَوَانِ بمَنْ نَأَى ... بجَانبِه وَلا السَّؤُومِ الْمُؤَاكِلِ

وَلكِنْ أَخُوهَا كُلُّ أَشعَثَ دَارعٍ ... يُعَالِي السِّلاحَ فَوْقَ أَجْرَدَ نَاقِلِ

وقد ترجم القرآن الكريم تلك اللغة في قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [الإسراء: ٨٣]، قال الزمخشري: وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ بالصحة والسعة أَعْرَضَ عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبدّ بنفسه، وَنَأى بِجانِبِهِ تأكيد للإعراض؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأى بالجانب: أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كانَ يَؤُساً شديد اليأس من روح الله(١١٩).

وحيث إن الإعراض عن الشيء يسبب طردًا للنعيم، وجلبًا لخسارة الآخرة قوى ذلك بمؤكدات عدة؛ منها؛ إضافة النعيم لذي الجلال والإكرام؛ لتعظيمه، أنه من الكثرة بمكان بحيث لا يعد ولا يحصى، ثم تعريف (ال) في الإنسان؛ لدلالة أنه نوع كثير منهم، وليس لاستغراق الجنس، فقد استثنى الخطاب القرآني الذي يكفر النعمة ويجحدها بتوليه ظهره لها، وشكر النعمة حمد رازقها. وتأكيد الجملة (أعرض، نأى بجانبه) تأكيدًا لصده النعمة، بجفائه لها. ثم احترس بقوله تعالى: { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا}؛ إذ لمتلق أن يفهم أنه يعرض فقط في حالة السراء، لكن إذا مسه الشر أو الضيق أو أصيب بداء صلح حاله واستقام، فاحترس لئلا يتوهم متوهم ذلك، أي هو كذلك في حالتي السراء والضراء، فحاله حالان، الإعراض والمجافاة في العطاء، والحنق وضيق الصدر في الضراء؛ وزاد في الأولى بعد جملة (أنعمنا) (أعرض ونأى)، وزاد بعد (إذا مسه الشر) (كان يئوسًا)، فبولغ فيه بزنة (فعول)؛ لدلالة قطع الرجاء، والقنوط من رحمة الله وفضله، وصار فعله هذا ملازمًا له، مستكنًا فيه، متمكنًا منه؛ إذ إن حالة السلب بعد العطاء تستدعي التأمل والتدبر، ولكنه اتخذ إلهه هواه.

ثم عمم ذلك في آية فصلت، في قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت: ٥١]، إذ إن حال الناس في استقبال السراء والضراء في تفاوت، إذا مسهم الشر تضرعوا وابتهلوا ولجوا بالدعاء بكشف الضر وصرف السوء، وإذ أرادهم الله بخير نسوا الدعاء والشكر، وبطروا النعمة وجحدوها. يقول الجاحظ: "وكل غني محتاج، وإن عصفت به الخيلاء وأبطره العجب، وصال على الأقران، فإنه مذال مدّبر، ومقهور ميسّر. إن جاع سخط المحنة، وإن شبع بطر النعمة. ترضيه اللمحة فيستشري مرحا، وتغضبه الكلمة فيستطير شققا"(١٢٠)

وتصوير الحالين للتعجيب منهما، حال الصد وعدم الإقبال في العطاء بالشكر والحمد، وحال الدعاء والابتهال إذا مسهم الضر، مقيدًا إياه بكونه عريضًا، والدعاء لا يكون عريضًا، وإنما استعير له المساحة؛ نظرًا لإلحاحه ومداومته واستمراره فكأن ملأ وجدانه، وليس لسانه فحسب، يبرهن على ذلك توظيف لفظة [ذو]، وكان من الممكن في غير الخطاب القرآني: [فدعاؤه عريض]؛ لكنه أكد على المصاحبة باستعمالها. والآية في سورة فصلت تشمل الكافر، وتخص المسلم في حال غفلته عن شكر ربه، أما في سورة الإسراء فهي للكافر خاصة بقرينة قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]

<u>ومنه قوله تعالى</u>: {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الحج: ٩]. وَيُقَالُ لِلْجَانِبَيْنِ الْعِطْفَانِ، سُمِّيَا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَمِيلُ عَلَيْهِمَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ثَنَى عِطْفَهُ، إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ وَجَفَاكَ. وَيُقَالُ: فُلَانٌ يَتَعَاطَفُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذَا تَمَايَلَ. وَالْإِنْسَانُ يَتَعَطَّفُ بِثَوْبِهِ، وَهُوَ شِبْهُ التَّوَشُّحِ. وَالرِّدَاءُ نَفْسُهُ عِطَافٌ، لِأَنَّهُ يُعْطَفُ. ثُمَّ يَتَّسِعُونَ فِي ذَلِكَ فَيُسَمُّونَ السَّيْفَ عِطَافًا لِأَنَّهُ يَكُونُ مَوْضِعَ الرِّدَاءِ(١٢١). وقال تأبط شراً يمدح شمس ابن مالك(١٢٢)

إني لمهدٍ من ثنائي فقاصدٌ ... به لابْنِ عمِّ الصِّدْقِ شمسْ بن مالك

أهزُّ بِهِ في ندوَة الحيَّ عِطْفَهِ ... كما هَزَّ عِطْفِي بالهجانِ الأوارِكِ

وقال: هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ(١٢٣):

لَعَمْرُكَ مَاوَلَّيْتُ ظَهْرِي محمدًا ... وَأَصْحَابَهُ جبْنًا وَلا خَشْيَةَ الْقَتْل

وَلكِنَنِي قَلَّبْتُ أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ ... غَنَاءً لِسَيْفِي إنْ ضَرَبٌ وَلا نَبْلي

وَقَفْتُ فَلَمَّا لَم أَجِدْ لِيَ مَقْدَمًا ... صَدَدْتُ كَضِرْغَامٍ هِزَبْرٍ أَبِي شِبْلِ

ثَنَى عِطْفَهُ عَنْ قِرْنِهِ حِين لَمْ يَجِدْ ... مَسَاغًا لَهُ لا في التَّصرُّفِ وَالْخَتْلِ

وقد صور الخطاب القرآني من يؤثر الثبات على الضلال ويبتغيه، ويجادل في الأدلة الساطعة، والبراهين الصادقة بقوله: (ثاني عطفه)؛ مجسدًا فعلته قولًا وفعلا، فصار ضلاله وعناده وتكبره ومجافاته ولي رقبته، وميل جانبه مشاهدًا للعيان، ثم علل ذلك بأن فعلته هذه (الضلال)، في قوله تعالى: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وإذا اعوج الإنسان صار طريقه معوجًا، فقد رسم بسمات شخصيته طريقه، فضل سعيه في الدارين، والترتيب المعنوي جاء على مقتضاه: { لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ}؛ لبيان ما سلكه من الطريق، ثم ما استحق له من إذاقته العذاب في الآخرة، وقد عدل الخطاب القرآني عن الضد المباشر، فمقتضى الظاهر أن يقول: (له في الدنيا خزي وله في الآخرة العذاب) إلى الاستعارة المكنية التبعية في الفعل: (نذيقه)؛ لكونها أشد مبالغة، فإذا تذوق الإنسان العذاب، صار عذابًا فوق العذاب، ثم عدل إلى لفظة (يوم القيامة)؛ لما يتضمنه هذا اليوم من هول وعذاب من جانب، والنفس ترهبه وتخاف منه من جانب آخر، ثم أبان عن نوعية العذاب، معددًا أوجه دلالاته؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب؛ لعلها ترتدع، فقال: (عذاب الحريق) من إضافة المسبب إلى السبب، فيصير المعنى: جهنم البالغة في الإحراق، ويحتمل أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة، والمعنى: العذاب الحريق، أي: العذاب المحرق الذي لا نجاة منه.

ومن إعجاز القرآن الكريم تلك اللغة الإشارية التي تصور إعراض المتكبر وصده كما في قوله تعالى: { فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: ٣٩]

والتولى بالركن لغة الإعراض والكبر، وهو تعبير يستخدم كلية، أما إذا قلنا إن التولى: استعارة مكنية تبعية في الفعل، فقد جاء التولي بمعنى الإعراض، واشتق من المصدر الفعل، تولى بمعنى أعرض، ثم نقول: (الركن) استعارة تصريحية أصلية في الاسم، فقد شبه قومه أو رهطة في قوة نصرته بالركن، وصرح بذلك، <u>فقد ضاع جمال التمثيل، فلا تجزئة لضرب المثل</u>، فهي هيئة مركبة من (استعارة تمثيلية)؛ تضرب مثلا للمتعالي المتكبر الذي يصم أذنه، ويستغشي ثوبه، فلا يترك منفذًا مفتوحًا لقبول دعوة، أو أخذًا بعظة. وزاده الخطاب القرآني اضطرابًا وعدم استقرار في أخذ قرار فصور تلجلج الباطل بتوظيفه (أو) االتي تعني الشك في قوله من جانب، وتأكيدًا لزعمه الفاسد من جانب آخر، قائلًا: (ساحر أو مجنون)؛ فأخرج الكلام مخرج الاحتمال والشك، ونظرًا لمداهمته الموقف حذف المسند إليه؛ إذ المقام مقام إيجاز لا إسهاب واسترسال.

ومنه الاتكاء وهو لغة يكون في التنعم والترف، وأصله الميل إلى أحد الشقين، يقوا ابن سيده: يُقَال توكّأ الرجلُ واتّكأ. وأتكأتُه: أضجَعْتُه أَو ألقيتُه على جَانِبه الْأَيْسَر(١٢٤). ويقال للثقيل الذي لا براح به: إنه لتكأةٌ(١٢٥)، واتكأنا عند فلان: طعمنا، ومنه قوله تعالى: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً} [يوسف: ٣١] قال جميل بن معمر(١٢٦):

فظللنا بِنِعْمَة وأتكأنا ... وشربنا الْحَلَال من قلله

والاتكاء الاتّكاء غاية الراحة وهو شأن المتنعمين المترفهين، وقد استعملت (متكئين) لأهل الجنة خاصة، في قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٣١]، وقوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} [ص: ٥١]، وقوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} [الطور: ٢٠]، وقوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤]، وقوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]، وقوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ } [الواقعة: ١٦]، وقوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} [الإنسان: ١٣]. وقال الفرزق فِي بَعْضِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ(١٢٧)

إِنَّا نُؤَمِّلُ أَنْ يُقِيمَ لَنَا ... سُنَنَ الْخَلَائِفِ مِنْ بَنِي فِهْرِ
عُثْمَانَ إِذْ قَتَلُوهُ وَانْتَهَكُوا ... دَمَهُ صَبِيحَةَ لَيْلَةِ النَّحْرِ
وَعِمَادَةُ الدِّينِ الَّتِي اعْتَدَلَتْ ... عُمَرُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرِ
رُفَقَاءُ مُتَّكِئِينَ فِي غُرَفٍ ... فَكِهِينَ فَوْقَ أَسِرَّةٍ خُضْرِ
فِي ظِلِّ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَهُ ... مَلِكِ الْمُلُوكِ وَمَالِكِ الْغُفْرِ

ونستطيع أن نخلص إلى نتائج مهمة في نهاية هذا الكتاب:

إن القوة الإنجازية لها دورٌ فاعل ورئيس في الانتقال من الفعل الإنجازي إلى الفعل التأثيري. فالعلاقة بينهما علاقة طردية، فكلما قوي الفعل الإنجازي ازدادت مظاهر الفعل التأثيري. ومن ثمّ فإن درجات الفعل الإنجازي بمثابة البوصلة أو المؤشر لقياس الفعل التأثيري. كما يؤكد عنوان البحث أن اللغة غير الملفوظة خطاب مؤثر، فالمحرك الذي يدفع المتكلم إلى انتقاء إشاراته وتطور تقنياته، وتسخير أدواته كافة هو الوصول إلى الغرض المنجز المتمثل في الإقناع وجمالية التأثير.

– إن اللغة غير المنلفوظة لغة تواصل كاللغة الملفوظة إلا أنها ترتبط بالمجتمعات، وقد تتوارث، وقد تكون مقرونة بزمن معين، وقد جاءت تلك اللغة مصاحبة للكلام الملفوظ في الأدب العربي عامة، والشعر خاصة، وقد استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم، ووظفها القرآن الكريم، ففي العين غنى عن اللسان في كثير من الأحايين، فعين الإنسان تبدي ما في قلبه، وفي اللحظ إيحاء، ومنه رسول، فكان غض الطرف حياءً، و جاء ابيضاض العين لغة حزن، وجاء احمرارها في الحديث النبوي لغة غضب وكراهة.

جاءت لغة الوجه تعبيرًا عن المدح والهجاء، وأيقونة للإخبار عما سيؤول إليه الإنسان؛ تبشيرًا له بالجنة، وإنذارًا له من النار، وجاءت لغة عتاب لرسولنا الكريم في سورة عبس، وجاءت لغة مكر وتصوير لنفس مضطربة اعتراها الإعراض والاستكبار كما في سورة المدثر. وجاءت في صورة المتعجب معبرًا عنه بصك الوجه عند المفاجأة بالبشارة كما في سورة الذاريات. ومن لوازم الوجه التبسم وقد توزع على لغة البِشر والطلاقة كما جاء في وصف تبسم سيدنا سليمان عليه السلام في سورة النمل، وجاءت لغة سخرية واستهزاء كما في سورة الزخرف والمطففين. ومن لوازم الوجه الخد، وقد جاء تصعير الخد في القرآن الكريم لغة المتكبر المختال في سورة لقمان.

-جسَّد الخطاب القرآني إشارية لغة (اليد)، فقد جاءت بالعض عليها كما في سورة الفرقان، وإشارة الندم والتحسر كما في سورتي الأعراف والكهف. وكان وضع اليد على الفم عند التعجب، أو إشارة إلى السكوت، أو عند الضحك والاستهزاء، أو عند إسكات غيرك ومنعه من الكلام كما في سورة إبراهيم، وهي لغة الإعراض والصد كما في سورة نوح.

-جاء التشمير عن الساق، والكشف عنه مصاحبًا لصعوبة الخطب، وشدة الأمر كما في سورة القلم، وقد جاء ذلك في سياق صعوبة الموت، حين تبلغ الروح التراقي، ويدنو زهوقها، ويكون المكان مكان احتضار، كما في سورة القيامة. وقد يأتي ذلك في سياق الاستعداد للأمر كما في سورة النمل.

-للرأس لغة معروفة عند العرب، فقد تدل على السؤدد، أو الإذلال والإهانة، أو الغضب والانفعال، وشدة الحنق والغيظ، أو الإعراض والصد، أو الإشارة إلى إقامة الشعائر طاعةً وعبادة، وقد تكون لغة الشيب والكبر، ويضرب المثل به في عدم الاهتمام، كقولنا: رجل أشعث.

- عبر وضع الجسم عن لغة بعينها، كالترقب، كالتبختر، أو التكبر والتعالي، أو الذل والانكسار، ومنه: النأي بالجانب، وقد جاء الإعراض والنأي يشمل الكافر، ويخص المسلم- في حال غفلته عن شكر ربه- في سورة فصلت، أما في سورة الإسراء فهي للكافر خاصة بقرينة قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]. وعبرت اللغة الإشارية (ثني العطف، والتولي بالركن، واستغشاء الثوب) عن إعراض المتكبر وصده، وإيثاره الضلال، ومجادلته الأدلة الساطعة، والبراهين الصادقة. كما جاءت لغة الاتكاء وهو لغة يكون في التنعم والترف خاصة، وأصله الميل إلى أحد الشقين، والاتكاء غاية الراحة وهو شأن المتنعمين المترفهين واصفًا به أهل الجنة جعلنا الله ومن يقرأ منهم.

الهــوامــش

(١) ينظر: الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، ص: ٤، ٥.
(٢) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، (ص: ٩٣).
(٣) قدامة بن جعفر، نقد الشعر (ص: ٥٦).
(٤) السابق (ص: ٥٦).
(٥) البيان والتبيين (١/ ٩١).
(٦) السابق (١/ ١١).
(٧) نفسه (١/ ٨١).
(٨) نفسه (١/ ٩٤).
(٩) عيون الأخبار (١/ ٢٩٥). سر الفصاحة (ص: ٢٣٣).
(١٠) سر الفصاحة (ص: ٢٣٣). إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٧٨).
(١١) البيان والتبيين (١/ ٨٣).
(١٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٣١٠)
(١٣) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب (٣/ ٢٤٨).
(١٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٣١٠)
(١٥) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب (٣/ ٢٤٨).
(١٦) صحيح البخاري (٦/ ١٦٦) بَابُ {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا}.
(١٧) السابق (٨/ ٩). بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا.
(١٨) نفسه (٨/ ١٢) بَابُ تَعَاوُنِ المُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.
(١٩) نفسه (١/ ١٤٩) بَابُ الخُشُوعِ فِي الصَّلاَةِ.
(٢٠) سنن الترمذي ت بشار (٤/ ١٠١)
(٢١) شعب الإيمان (٣/ ٢٩).
(٢٢) ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف (ص: ١٣٧)
(٢٣) أمالي الزجاجي (ص: ١١٠).
(٢٤) العقد الفريد (٢/ ٢٠٤).
(٢٥) الدر الفريد وبيت القصيد (٤/ ٤٣٢).
(٢٦) كنز الكتاب ومنتخب الأدب (٢/ ٥٢٠).
(٢٧) البيان والتبيين (١/ ٨٣).
(٢٨) ديوان عمرو بن أبي ربيعة، ص ٢٠٤.
(٢٩) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (٤/ ٤٢٣).
(٣٠) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢١٢).
(٣١) لسان العرب (٧/ ١٩٧).
(٣٢) البيت لجرير من قصيدة في هجاء الراعي النميري في ديوانه ص ٦٣.
(٣٣) شعب الإيمان (٣/ ٢٩).
(٣٤) ديوان عنترة، (ص: ٩١).
(٣٥) ديوان المعاني (١/ ٤٣)

(٣٦) يتيمة الدهر (١/ ٤٧٧).
(٣٧) الوساطه بين المتنبي وخصومه ونقد شعره (ص: ٣٩٠).
(٣٨) ديوان حسان: صـ ٣٦٦، ط بيروت.
(٣٩) المنصف للسارق والمسروق منه (ص: ١٢٥).
(٤٠) شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي – السفر الأول (١/ ١٨٧).
(٤١) المنصف للسارق والمسروق منه (ص: ٤٧٥).
(٤٢) يتيمة الدهر (٢/ ٤٠٦).
(٤٣) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨)
(٤٤) شعب الإيمان (٣/ ٢٩).
(٤٥) صحيح البخاري (١/ ٣٠).
(٤٦) أسباب النزول ت/ زغلول (ص: ٤٧١).
(٤٧) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ١٠).
(٤٨) العين (١/ ٣٤٣). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ٩٤٥)، مادة (عبس).
(٤٩) أسباب النزول ت زغلول (ص: ٤٦٨).
(٥٠) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٥٠).
(٥١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٢٢).
(٥٢) البيان والتبيين (١/ ٨٤).
(٥٣) تهذيب اللغة (١٢/ ٧٦).
(٥٤) جمهرة اللغة (١/ ١٤٣) لسان العرب (١٠/ ٤٥٦).
(٥٥) البخلاء للجاحظ (ص: ٢٣)
(٥٦) ديوان ابن أبي حصينة(ص: ٣٢٨).
(٥٧) ديوان كثير (ص ١٨٧).
(٥٨) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٠١).
(٥٩) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٥٩٧).
(٦٠) مقاييس اللغة (٣/ ٣٩٣).
(٦١) صحيح البخاري (٨/ ٢٤). بَابُ التَّبَسُّمِ وَالضَّحِكِ.
(٦٢) السابق.
(٦٣) تهذيب اللغة (٢/ ١٨). لسان العرب (٤/ ٤٥٦) مادة صعر.
(٦٤) مختارات شعراء العرب لابن الشجري (١/ ٢٨)
(٦٥) الحجة للقراء السبعة (٥/ ٤٥٥).
(٦٦) معاني القرآن للفراء (١/ ٤٦٢).
(٦٧) الحيوان (١/ ٣٨).
(٦٨) مسند أحمد مخرجا (٤٢/ ٣٦١).
(٦٩) ديوان امرئ القيس تحقيق: المصطاوي (ص: ٨٧) النّثا: النبأ الحسن أو العكس.
(٧٠) الحيوان (١/ ٣٨).

(٧١) ديوان طرفة بن العبد (ص: ١٩). خولة: اسم امرأة. وكانت عادة أن يستهلوا قصائدهم بذكر الحبيبة والأطلال في ذلك العهد. الأطلال: مفردها الطلل وهو ما تبقى من الأثر. البرقة: المكان الذي يكثر الحصى في ترابه. ثهمد: موضع. تلوح: تظهر. الوشم: النَقْش بالإبرة على الجسد بعد غمسها بالكحل أو أي صباغٍ آخر. والمطي: مفردها المطية وهي الناقة. الأسى: الحزن. التجلد: الصبر.

(٧٢)الأصمعيات (ص: ١٠٨).

(٧٣) ديوان البحتري: (١/ ٢١).

(٧٤) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه (ص: ٦٣).

(٧٥) أسباب النزول ت زغلول (ص: ٣٤٣).

(٧٦) مسند أحمد مخرجا (١٤/ ١٤٢).

(٧٧) السابق، الصفحة نفسها.

(٧٨) غريب القرآن لابن قتيبة ت أحمد صقر (ص: ٢٣٠).

(٧٩) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٠٧).

(٨٠) تهذيب اللغة (٩/ ١٨٥).

(٨١) والمضوفة: الْأَمر يخَاف مِنْهُ، يَعْنِي الْأَمر: يشفق مِنْهُ الرجل. تهذيب اللغة (١٢/ ٥٣).

(٨٢) جمهرة أشعار العرب (ص: ٤٧١). كميش الْإِزَار اي: مشمر الْإِزَار. وَمِنْه يُقَال: تكمشت الْجلْدَة إِذا انقبضت. أرادَ أنَّه مشمّر جادّ، وَلم يُرد خروجَ السَّاق بِعَينها.والنجد: ما ارتفع من الأرض تهذيب اللغة (٩/ ١٨٤).

(٨٣) وَمعنى الْبَيْت اشتدت غَمَرَات الْحَرْب وبدا مَحْض شَرها، وقوله " كشفت لهم عن ساقها " مثلٌ يضرب لشدة الحرب، وإنما أهلها في ذلك الوقت يكشفون عن الساق، فجعل الفعل لها، والمراد انكشفت الحرب لهم عن تشمر أهلها واشتدادها. وقوله " وبدا من الشر الصراح " أي الخالص الذي لا يمتزج به خيرٌ ولا يرجى بعده صلاحٌ. شرح ديوان الحماسة (ص: ٣٥٨)

(٨٤) شرح ديوان المتنبي للواحدي (ص: ١٢٧) العذافر: الجمل الشديد. والضفور: جمع الضفر، وهو حزام الرحل. ونصب مشمرا على الحال من التآء من ركبت والهاء في إليها للأمور، والهيجاوات. وأراد بالقلق الضفور: أي أن الحزام كان قد قلق للجهد، وطول السير. وقيل: يقال للجمل الصعب إنه قلق الضفور. المعنى: طلبت هذه الصعبة الشديدة، مرة راجلًا، ومرة راكبًا، لبعير قد جهده السفر حتى قلق ضفوره.

(٨٥) ديوان طرفة بن العبد (ص: ٧٣).

(٨٦) ديوان الهذليين (٣/ ٢١) يقول: هو الحَرْب قد زاوَلَهَا وعالجَهَا، فإنّ عضّته عضّها، وإن غمزتْه غَمَزَها.

(٨٧) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١/ ٤٧٠).

(٨٨) اللطائف في اللغة = معجم أسماء الأشياء (ص: ٦٣).

(٨٩) المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٥٢٥).

(٩٠) صحيح البخاري (٦/ ١٥٩). بَابُ {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} [القلم: ٤٢]

(٩١) المخصص (١/ ٤٢٠). أساس البلاغة (١/ ٤٥٧)

(٩٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥٤١).

(٩٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٥٩٤).

(٩٤) النكت في القرآن الكريم (ص: ٥٢٩)

(٩٥) لسان العرب (٤/ ٤٢٨). مادم شمر.

(٩٦) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٧٠).

(٩٧) المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ١٤٩).

(٩٨) تهذيب اللغة (١٤/ ٨٤).
(٩٩) السابق (١٤/ ٨٤).
(١٠٠) لسان العرب (٥/ ٨٧)
(١٠١) الطب النبوي لأبي نعيم الأصفهاني (١/ ٣٠٧).
(١٠٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٤).بَابُ فَضْلِ الضُّعَفَاءِ وَالْخَامِلِينَ
(١٠٣) البيان والتبيين (١/ ٩٦)
(١٠٤) المحب والمحبوب والمشموم والمشروب (ص: ١٦١).
(١٠٥) ديوان امرئ القيس ت المصطاوي (ص: ٨٤). آب، رجع. الجمة: الشعر في مقدمة الرأس. المعقب: الخمار. الرّيط: ريطة وهي الملاءة. هدّابه: الخيوط تكون في طرف الثوب.
(١٠٦) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص: ٣٨).
(١٠٧) معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١١٧٤).
(١٠٨) غريب الحديث لإبراهيم الحربي (٣/ ٩٠٩).
(١٠٩) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٦٦).
(١١٠) لسان العرب (٨/ ٣٧٢).
(١١١) تهذيب اللغة (١/ ٩٧)
(١١٢) معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٥٤٦).
(١١٣) تهذيب اللغة (٨/ ٢٨٠).
(١١٤) تفسير الطبري = جامع البيان (٢٢/ ٢٥٨).
(١١٥) تهذيب اللغة (١٥/ ٣٨٩)
(١١٦) لسان العرب (١٥/ ٣٠٠) مادة نأي.
(١١٧) الدر الفريد وبيت القصيد (٤/ ٤٤١) والأبيات كلها في غرر الخصائص الواضحة: ٥٩٤ منسوبة إلى أَبي الْقَاسِم عبد الصَّمد بن بابك. يشكو صديقًا مال حين اكتسب المال. ينظر: غرر الخصائص الواضحة (ص: ٥٩٤).
(١١٨) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٦٨٩)
(١١٩) حماسة البحتري (ص: ٩٥).
(١٢٠) البيان والتبيين (٢/ ٢٢٨).
(١٢١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٥١).
(١٢٢) نقد الشعر (ص: ٢٩). فِي ندوة الْحَيّ أَي فِي مُجْتَمع الْحَيّ وَعطف كل شَيْء جَانبه والهجان الْإِبِل الْكَرِيمَة والأوارك الَّتِي ترعى شجر الْأَرَاك وَالْمعْنَى أسره بثنائي حَتَّى يراح ويطرب كَمَا سرني بِالْإِبِلِ الْبيض الْكِرَام حَتَّى اهتززت .
(١٢٣) حماسة البحتري (ص: ١١٠).
(١٢٤) المخصص (٣/ ٣٣٣)
(١٢٥) أساس البلاغة (٢/ ٣٥١)
(١٢٦) المعاني الكبير في أبيات المعاني (١/ ٤٥٧).
(١٢٧) المجالسة وجواهر العلم (٥/ ٤١٢).